الفراسة عند ابن القيم

د. وجيه احمد عبدالله*

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الفِرَاسةُ ثمرة معرفية، يقف أمامها الفكر الإنسانى بالتأمل والتفكير، ويعتريه الحيرة والشك، حيال الإجابة عن سؤال يلح عليه ، هل الفراسة منّة إلهية يهبها الله سبحانه وتعالى لمن يشاء من عباده؟ أم واردة على العبد ميراثاً لعمله الصالح؟ أم هى نتيجة إستدلالية يصل إليها الإنسان من نظره فى ظواهر الأشياء؟

موضوع الفِرَاسةُ عند ابن القيم سيعرض للإجابة عن هذه التساؤلات وذلك من خلال عرض مفهوم الفِرَاسة، وأنواعها، ودرجاتها، وأسبابها، ولذا يجدر بنا بادئ ذى بدء أن نعرض لمفهوم الفِرَاسةُ فى الفكر اليونانى، ثم نتناول مفهوم الفِرَاسةُ فى الفكر الإسلامى، ثم نعمق مفهوم الفِرَاسة عند الإمام ابن القيم.

وعلى الله قصد السبيل،،

* دكتور/ وجيه احمد عبدالله، مدرس بقسم الفلسفة، كلية الآداب بسوهاج، جامعة جنوب الوادى.

التعريف بابن القيم:

الغالب فى كتب السير والتراجم أنه العلامة محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد بن جرير الزرعى الدمشقى، الشهير بابن القيم، والمكنى عبد الله شمس الدين ، ولقب الزرعى نسبة إلى بلدته زرع من أعمال دمشق، واشتهر بابن القيم. فقد كان أبوه قيماً على المدرسة الجوزية بدمشق، لذا عرف بابن القيم أو بابن قيم الجوزية، بيد أن بعض المترجمين يهمل أو يؤخر ذكر اسم من هذه السلسلة على غيره.

وقد نعته أصحاب كتب السير والتراجم بالفقيه الحنبلى، والمجتهد، والمفسر النحوى، والأصولى، والمتكلم، وقد نعت بهذه الصفات لقدم صدق راسخة فيها؛ فقد قال عنه ابن رجب نقلاً عن الذهبى فى مختصره: إنه عنى بالحديث ومتونة وبعض رجاله، وكان يشتغل فى الفقه ويجيد تقريره، وفى النحو ويدريه، وفى الأصلين أصول الدين وأصول الفقه(١).

وقد أورد ابن العماد الحنبلى وصاحب كتاب جلاء العينين قول ابن رجب: كان ابن القيم عارفاً بالتفسير لايجارى فيه، وبأصول الدين وإليه فيه المنتهى، وبالحديث ومعانيه وفقهه، ودقائق الاستنباط منه، لا يلحق فى ذلك، وبالفقه وأصوله، وبالعربية وله فيها اليد الطولى، وبعلم الكلام، وعالما بعلم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ومتونه(٢). وقال عنه القاضى برهان الدين الزرعى: ما تحت أديم السماء أوسع علماً منه، ودرس بالصدرية وأمّ بالجوزية، وكتب بخطه مالا يوصف كثره، وصنف تصانيف كثيرة فى أنواع العلوم، وكان شديد المحبة للعلم، وأقتنى من الكتب ما لم يحصل لغيره(٣).

---

(١) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، المكتب التجارى للطباعة والنشر، بيروت، جـ٦ ، ص١٦٨، ابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت، جـ٣ ، ص ٤٠٠، السيد نعمان خير الدين الألوسى البغدادى : جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين، مطبعة المدنى بالقاهرة، ١٩٨٠، ص ٤٤.

(٢) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب، حـ٦، ص ١٦٨.

(٣) السيد نعمان خير الدين الألوسى : جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين ، ص ٤٤.

وقد أورد ابن حجر وغيره من المترجمين أن له كثرة من التصانيف منها إعلام الموقعين، وبدائع الفوائد، وطريق السعادتين، وشرح منازل السائرين، والقضاء والقدر، وجلاء الأفهام فى الصلاة والسلام على خير الأنام، ومصايد الشيطان، ومفتاح دار السعادة، والروح، وحادى الأرواح، والصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، وتصانيف أخرى، وكل تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف[1].

وقد تتلمذ ابن القيم على أكثر علماء عصره ونهل من معارفهم، وعلى الأخص أستاذه ابن تيمية حيث أخذ عنه الكثير ولازمه طوال حياته وتأثر به ونهج منهجه.

وقد اشتهر ابن القيم بالخلق العظيم وتواضع العلماء؛ فيقول عن مؤلفاته؛ هذه بضاعتى المزجاة تعرض عليك، وبنات أفكارى تزف إليك، فإن صادفت كفؤاً كريماً لم تعدم منه إمساكاً بمعروف أو تسريحاً بإحسان، وإن كان غيره فالله المستعان، فما كان من صواب فمن الواحد المنان، وما كان من خطأ فمنى ومن الشيطان، والله برئ منه ورسوله[2].

وقد ولد ابن القيم فى السابع من شهر صفر إحدى وتسعين وستمائة من الهجرة، وتوفى ثالث عشر رجب سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، ودفن بمقبرة الباب الصغير بدمشق، وكان قد رأى قبل موته شيخه الإمام تقى الدين بن تيمية فى النوم وسأله عن منزلته فأشار إلى علوها فوق بعض الأكابر، ثم قال له: وأنت كدت تلحق بنا، ولكن أنت الآن فى طبقة ابن خزيمة رحمهم الله تعالى[3].

---

(١) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة ، حـ٣، ص ٤٠٠ – ٤٠٢.

(٢) ابن القيم : حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح، مكتبة المتنبى، القاهرة ص ٨.

(٣) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، حـ٦ ، ص ١٦٩ ، ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنه ، جـ ٣، ص ٤٠٢ ، وابن خزيمة هو أبو بكر محمد بن اسحاق بن خزيمة السّلمى النيسابورى، ولد سنة ٢٢٣ هـ، فى نيسابور، سمع من اسحاق بن راهوية وغيره ، وكان من رواته البخارى ومسلم، وكان محدثاً ومتكلماً، ويقال إنه ألف أكثر من ١٤٠ كتاباً، وتوفى فى نيسابور سنة ٣١١هـ. انظر السبكى : طبقات الشافعية، دار المعرفة، لبنان ، ط ٢ ، حـ٢ ، ص ١٣٠ ، وانظر ابن العماد الحنبلى شندرات الذهب ، جـ٢ ، ص ٢٦٢ ، وانظر الذهبى : تذكرة الحفاظ ، دار إحياء التراث العربى بمكة المكرمة ، ١٣٧٤هـ، حـ١ ، ص ٧٢٠.

تعريف الفِرَاسةُ لغةً واصطلاحاً :

جاء فى تعريفات الجرجانى؛ الفِرَاسةُ فى اللغة : التثبت والنظر، وفى اصطلاح أهل الحقيقة: هى مكاشفة اليقين، ومعاينة الغيب(١).

وأورد الزمخشرى (ت ٥٣٨ هـ) قوله : هو فارس ثابت الفِرَاسةُ ، وفارسُ صائب الفِراسةُ، ويقال : ليس بفارس ولكنه يتفرّس؛ أى صار ذا رأى وعلم بالأمور، وفِرَاستى فى فلان الصلاح(٢).

وجاء فى المعجم الوسيط : الأمر فِرَاسةً؛ أدرك باطنه بالظن الصائب، فهو فارسٌ، وصار ذا رأى وعلم بالأمور، فهو فَارس بالأمر، عالم بصير، والفِرَاسة : المهارة فى تعرف بواطن الأمور من ظواهرها، وهى الرأى المبنى على التُّفرّس(٣).

وقال الغزالى (ت ٥٠٥ هـ)؛ الفِرَاسةُ : التوسم بعلامة من الله تعالى بينه وبين العبد يستدل بها على أحكام باطنة، وذلك لا يكون إلا فى درجة التقريب، وهو دون الإلهام الذى لا يقتصر إلى علامة، والفِرَاسة تفتقر إلى علامة وهو عام وخاص(٤). ويعد الغزالى الفِراسة معياراً قياسياً يبين طريق معرفة الظالم من المظلوم فيكشف ستر الباطن عن منهج الحق(٥). والفِرَاسة عند أبى عثمان النيسابورى (ت ٢٩٨هـ) ظن وافق الصواب، والظن يخطئ ويصيب، فإذا تحقق فى الفراسةُ ، تحقق فى حكمها، لأنه إذ ذاك يحكم بنور الله تعالى لا بنفسه(٦).

---

(١) الجرجانى : التعريفات، دار الكتب ، لبنان ، ١٩٨٣، ص ١٦٦.

(٢) الزمخشرى: أساس البلاغة ، دار التنوير العربى، لبنان، ط ٤ ، ١٩٨٤، ص ٣٣٨، مادة : فَرَسَ.

(٣) المعجم الوسيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، حـ٢ ، ص ٧٠٦، مادة : فَرَسَ.

(٤) الغزالى : روضة الطالبين وعمدة السالكين، دار النهضة الحديثة ، لبنان، ص ٥٧.

(٥) الغزالى : سر العالمين وكشف ما فى الدارين، مطبعة الجندى، القاهرة، ص ٣١.

(٦) السلمى : طبقات الصوفية، تحقيق نور الدين شريبة، مكتبة الخانجى بالقاهرة، ط٣ ، ١٩٨٦، ص ١٧٤.

وقال أبو سعيد الخراز (ت ٢٧٧هـ) ؛ من نظر بنور الفِراسةُ نظر بنور الحق، وتكون مواد علمه من الحق بلا سهو ولاغفلة[١].

ويقول حمدون القصار (ت ٢٧١ هـ) ؛ منذ علمت أن للسلطان فِراسةً فى الأشرار ، ما خرج خوف السلطان من قلبى [٢].

وقال الحكيم الترمذى (ت ٣١٨هـ) ؛ الفِراسةُ مشتقة من الفروسية، فركضة بالجوارح على الفرس فروسية، وركضة ببصر قلبه بنور الله تعالى هى فِراسة، فبالفرس يقطع مسافة الدنيا، وبنور الله تعالى يقطع مسافة القلب، وذلك أن على الأشياء دلائل وسمات، وقد وسم الله تعالى خلقه بذلك، فبنوره تدرك تلك السمات حتى يدرك ما لم يأت بعد[٣].

ويرى أبو بكر الواسطى (ت ٣٢٠هـ) أن الفِراسةُ سواطع أنوار لمعت فى القلوب، وتمكين معرفة حملت السرائر فى الغيوب من غيب إلى غيب، حتى يشهد الأشياء من حيث أشهده الحق سبحانه إياه، فتكلم على ضمير الخلق[٤].

وقال الكتانى (ت ٣٢٢ هـ) : الفِرَاسةُ مكاشفة اليقين، ومعاينة الغيب، ومقام الفِراسةُ من مقامات الإيمان[٥]. وأورد القشيرى (ت٤٦٥ هـ) ؛ تعريف السلمى (ت ٤١٢هـ) للفراسة: بأنها؛ خاطر على القلب ينفى ما يضادة، وله على القلب حُكم ، وهى علَى حسب قوة الإيمان، فكل من كان أقوى إيماناً كان أحدّ فِراسة[٦].

---

(١) القشيرى : الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الحليم محمود ، محمود بن الشريف، دار الكتب الحديثة، القاهرة ، حـ٢ ، ص ٤٨٠، وانظر ابن القيم : مدارج السالكين، دار الحديث، القاهرة، حـ٢ ، ص ٥٠٤.

(٢) السلمى : طبقات الصوفية، ص ١٢٦، والقشيرى: الرسالة القشيرية، حـ١ ، ص ١١٥.

(٣) الحكيم الترمذى : نوادر الأصول فى معرفة أحاديث الرسول، دار صادر، بيروت، ص ٢٧١.

(٤) القشيرى: الرسالة القشيرية، حـ٢، ص ٤٨١، ابن القيم: مدارج السالكين، حـ٢، ص ٥٠٥.

(٥) القشيرى : الرسالة القشيرية، حـ٢ ، ص ٤٨١.

(٦) القشيرى : الرسالة القشيرية ، جـ ٢ ، ص٤٨٠.

ويعرف محى الدين بن عربى (ت ٦٣٨هـ) الفِراسةُ بأنها نور إلهى، يعطاه المؤمن لعينِ البصيرة، يكون كالنور لعين البصر، وتكون العلامة فى المتفرس فيه كنور الشمس؛ الذى تظهر به المحسوسات للبصر، والفِراسةُ هى أعلى درجات المكاشفة وموضعها من كتاب الله: «إن فى ذلك لآيات للمتوسمين»[١]، من السمة، وهى العلامة، ولا تخطئ أبداً بخلاف الفِراسةُ الحكمية[٢].

(١) سورة الحجر ، أية ٧٥.

(٢) محى الدين بن عربى : الفتوحات المكية، دار صادر ، بيروت، المجلد الثانى، ص ٢٣٦، ص ٢٤١.

الفِرَاسةُ في الفكر اليوناني:

الفِرَاسةُ للعقل مثل أعلى، فهي أجلى مظاهره، وما يحدث في الفكر اليوناني ليس فراسة بالمعنى الصوفي المعروف، وإنما هو عبارة عن حالة اتفاق أو تلازم يتفق وقانون العلية إذا حدثت الظاهرة أ تحدث الظاهرة ب ، وأيضا هو استدلال بالخَلْق الظاهر على الخلق الباطن[١] .

ويرى أرسطو (٣٨٤ -٣٢٢ق.م) أن هذا الاتفاق يتعلق بالأمور الطبيعية بلا اختيار منها، بمعنى تقابل العلل الطبيعية تقابلا بالعرض، وهذا الاتفاق لاحق للفكر والطبيعة[٢] .

ويذهب أبيقور (٣٤١ - ٢٧٠ ق.م) إلى أن الحدس الفكرى[٣] عبارة عن استدلال يؤدى بنا إلى استخراج تفاصيل العالم أى مفرداته من نظرتنا الإجمالية إليه، مثل استخراج الظواهر الجوية من معرفة مفاعيل العناصر، وهذا ما يسمى بمنهج إدراك اللامحسوس فى ذاته، وليس فى علاقاته بالمحسوس، وهو عبارة عن إستدلال من العام على الخاص أو من الظاهر على الباطن[٤] . وهناك أشياء تجرى مجرى الفراسة من الإنسان يؤتمن بوجودها، فمنها وجود الشيات يعنى الشامات ولها باعتبار مواقعها من البدن أسماء وأدلة، فالكائن منها بين العينين غرة، فإن استدارت أو حكت حرف الهاء فى الكتابة سميت الهقعة وتدل على اليمن والبركة[٥] ، وعلى ذلك يرى فليمون الحكيم (ت٢٠٠ق.) أن الفِرَاسة

---

(١) داود الأنطاكى: تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب، دار الفكر، حـ١ ، ص٧.

(٢) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية، مكتبة النهضة، ط ٥ ، ص ١٣٩ .

(٢) هو الإدراك المباشر لموضوع التفكير ، وله أثره فى العمليات الذهنية المختلفة، فيلحظ فى الإدراك الحسى ويسمى حدساً حسياً ، ويكون أساساً للبرهنة والاستدلال، ويسمى حدساً عقلياً، فبالحدس تدرك حقائق التجربة كما تدرك الحقائق العقلية، وبه نكشف عن أمور لا سبيل إلى الكشف عنها من طريق سواه، وهو بهذا أشبه بالرؤية المباشرة والإلهام والذوق الصوفى . أنظر المعجم الفلسفى ، مادة حدس، ص ٦٩ .

(٤) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية، ص ٢١٦ .

(٥) داود الانطاكى : تذكرة أولى الألباب. حـ١ ، ص ١٧ ، حـ٢ ، ص ٥٥ .

علم بأمور بدنية ظاهرة تدل على ماخفى من السجايا والأخلاق، أى أنه يستدل بتركيب الإنسان على أخلاق نفسه، وإن شئت فقل يدرك الباطن من نظر الظاهر[١]، ويعمد فليمون إلى التمييز بين الناس وتخليص بعضهم من بعض باتفاق الهيئات واختلافها، وجعل ذلك علما ظاهراً يستدل به على معرفة الطبائع، وزعم أن العضو إذا أشبه فى الخلقة عضواً كان مثله فى القوة والطبيعة استدل على الخلق ، والحداثات بثبات من الصور على ما خفى، ثم لا يتحصل القضاء إلا بعدطول التجربة، ويضيف فليمون أن أول علم الفراسة التأمل وإثبات التوسم وحفظ الصورة على خلقتها والشمائل على هيئاتها، والحركات على نظمها وما يعرض فيها من الأعلام التى يستدل بها على الطبائع والغرائز، ثم الحكم بما وقع عليه القياس من ذلك، ويؤكد فليمون على أن الفِرَاسة تدور على ثلاثة أصول :

أولهـــا : معرفة الصور باشباهها من الدواب.

والثـانى : معرفة خلقة التذكير والتأنيث.

والثالث: معرفة الشمائل بحركة الأوصال ، فشمائله الظاهرة على قدر قوته الباطنةوهمته التالية[٢]. فالمنهج الاستدلالى بهذا الشكل هو ما أطلقنا عليه بالفراسة الفلسفية، وهو أن يؤخذ من ظاهر البدن للدلالة على حالاته كلها أو بعضها؛ بيد أننا نلمح فى الغنوصية اليونانية[٣] ملمحاً ذوقياً صوفياً قريباً من فكرة الكشف التى هى نوع من الفراسة تمثلت فى طائفة من المفكرين عاشوا خلال القرن الأول حتى القرن الرابع الميلادى، والغنوصية مفادها أن العرفان الحق ليس هو العلم بوساطة المعانى المجردة والاستدلال كالفلسفة، وإنما هو

(١) ابن أبى أصيبعة : عيون الانباء فى طبقات الأطباء، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص ٤٨ ، داود الانطاكى: تذكرة أولى الألباب ، حـ٢ ، ص ٥٥.

(٢) فليمون الحكيم : الفِراسةُ ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص ٥ ، ص ١١ .

(٣) الغنوصية أو الغنوسيس كلمة يونانية معناها المعرفة، ولكنها تطورت واخذت معنى اصطلاحياً هو التوصل بنوع من الكشف إلى المعارف العليا، أو هو تذوق المعارف تذوقاً مباشراً، بأن تلقى فيه إلقاءً، فلا تستند إلى الاستدلال أو البرهنة العقلية. انظر النشار: نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام، دار المعارف ، ط ٧، ١٩٧٧ ، حـ١ ، ص ١٨٦ .

العرفان الحدسى التجريبى الحاصل عن اتحاد العارف بالمعروف، وأما غايتها فهو الوصول إلى عرفان الله على هذا النحو بكل ما فى النفس من قوة حدس وعاطفة وخيال، فالغنوصية تزعم أنها المثل الأعلى للمعرفة، وتعد مريديها بكشف الأسرار الإلهية وتحقيق النجاة، فكان العامة منهم يؤخذون بسحر طقوسها، والخاصة يتعلقون بتعاليمها النظرية، هذه التعاليم مزيج من الآراء التى كانت شائعة حينذاك[1]، وقد كان لسقراط الحكيم (٤٦٩ -٣٩٩ ق.م) من نفاذ البصيرة ما يجعله يعرف الرجل الصالح حين يراه وذلك عندما طلب من تلميذه ديوجنيس اللائرسى أن يتبعه ليرشده إذا أراد أن يكون فاضلاً[2].

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ، ص ٢٤٤، ٢٤٥، عبد القادر محمود: الفلسفة الصوفية الإسلام، دار الفكر العربى، ١٩٦٦، ص ٤.

(٢) جورج سارتون : تاريخ العلم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦١، حـ٣ ، ص ١٢٥.

الفِرَاسةُ في الفكر الإسلامي:

مدح الله سبحانه وتعالى الفرَاسةُ والمتوسمين بها، والمتفرسين الذين يعرفون سمات الله تعالى وعلائمه فى الأمور، فيركضون بنور الله إلى أمور لم تكن بعد فيدركونها، وإذا امتلأ القلب بنور الله تعالى نظرت عينا القلب بنوره سبحانه فأبصر صورة ما لايحاط به وصفاً، فالفِرَاسةُ من الله تعالى لعبده كائنة(١).

أولا: الفِرَاسةُ في القرآن الكريم:

إن القلب إذا سلم عن الآفات ، وأعرض عن الدنيا ، وأقبل على المولى ، تنور بنور الذكر وهو كلمة: لا إله إلا الله، وهى مركبة من نفى وإثبات، فنفيها تنفى شواغل القلب وظلماته، وبالإثبات تثبت شواهد أنوار الله سبحانه، فينكشف الغطاء عن بصر بصيرة القلب، فيرى بها آيات الحق تعالى، كما قال الله تعالى: «ما كذب الفؤاد مارأى»(٢)، ومن هنا قال من قال: ما نظرت فى شئ إلاّ ورأيت الله فيه، فمعرفة العوام بدلائل المعقول ، ومعرفة الخواص بشواهد المدلول، فأين من يعرف الحق تعالى بإراءة العقل ممن يعرفه الحق بإراءة آياته فى مرآة الأفاق كما قال تعالى: «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق»(٣).

وذكر الحق تبارك وتعالى الفرَاسةُ وأهلها فى كتابه العزيز، فوردت بعض الآيات تعظم أهل الفِرَاسة لسمتهم الحسن ولإيمانهم وسجودهم وخشوعهم لله سبحانه وتعالى، قال تعالى: «سيماهم فى وجوههم من أثر السجود»(٤)، فعن ابن عباس : سيماهم فى وجوههم يعنى السمت الحسن، وقال مجاهد : يعنى الخشوع والتواضع(٥).

---

(١) الحكيم الترمذى : نوادر الأصول، ص ٢٧١ ، ٢٧٢.

(٢) سورة النجم، أية ١١.

(٣) سورة فصلت ، أية ٥٣، وانظر أبو بكر عبد الله بن شاهاور الرازى : منارات السائرين ومقامات الطائرين، تحقيق سعيد عبد الفتاح، دار سعاد الصباح، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٥٥.

(٤) سورة الفتح، آية ٢٩.

(٥) ابن كثير: تفسير القرآن ، دار المعرفة، بيروت ، ١٩٨٤، حـ٤، ص ٢٠٤.

ووردت بعض الآيات تبين أن لأهل الفِراسةُ سلطان الحق، وأن لهم الإلهام لقوله تعالى: «إن فى ذلك لأيات للمتوسمين»[١]، وهم المتفرسون الآخذون بالسيما وهى العلامة، ويقال تفرست فيك الصلاح وتوسمته[٢]، فالتوسم هو الذى يعرف الوسم وعلامته، وهو العارف بما فى سويداء القلب بالاستدلال والعلامات ، والمتفرس ينظر بنور الله تعالى، وذلك سواطع أنوار لمعت فى قلبه فأدرك بها المعانى وهى من خواص الإيمان[٣]. وعن ابن عباس والضحاك؛ للمتفرسين أى للناظرين، وقال قتادة للمعتبرين، وقال مالك للمتوسمين أى للمتأملين[٤]. وفى موضع آخر من كتابة العزيز قال تعالى: «تعرفهم بسيماهم»[٥] أى بما يظهر لذوى الألباب من صفاتهم، وقال تعالى: «وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم»[٦]، فأهل الأعراف يقفون على الصراط المستقيم يعرفون أهل الجنة وأهل النار، فهم يعرفونهم بسيماهم، فيعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه، وأهل النار بسواد الوجوه[٧]. وكقوله تعالى : «يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والاقدام»[٨]، أى يعرف المجرمون بعلامات تظهر عليهم، وقال الحسن وقتادة يعرفونهم باسوداد الوجوه، وزرقة العيون[٩]، وقوله تعالى : «ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفهم فى لحن القول»[١٠] ، أى أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؛ كلا، بل سيوضح أمرهم

(١) سورة الحجر، آية ٧٥.

(٢) ابن القيم: الطرق الحكمية، دار المدنى للطباعة والنشر ، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١٤.

(٣) القشيرى : الرسالة القشيرية، حـ ٢، ص ٤٨٢.

(٤) ابن كثير : تفسير القرآن ، حـ ٢، ص ٥٥٥.

(٥) سورة البقرة، آية ٢٧٣.

(٦) سورة الأعراف، آية ٤٦.

(٧) ابن كثير : تفسير القرآن ، حـ٢، ص ٢١٨.

(٨) سورة الرحمن، آية ٥٥.

(٩) ابن كثير : تفسير القرآن ، حـ٤ ، ص ٧٥.

(١٠) سورة محمد، آية ٣٠.

ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر وأهل الفِرَاسةُ، ولتعرفنهم فى لحن القول أى فيما يبدو من كلامهم الدال على مقّاصدهم، فيفهم المتكلم من أى الحزبين هو بمعانى كلامه وفحواه[١].

ثانيا : الفِرَاسةُ في السنة النبوية:

للفرَاسةُ شواهد وأحاديث عن رسول الله ﷺ ، ولها شواهد وفيوضات ربانية لصحابةَ رسول الله ﷺ ولتابعيه ممن خصهم الله سبحانه وتعالى بنوره وألهمهم من فضله وشرح صدورهم للإيمان فتمت نعمة الله عليهم، فمن أحاديث رسول الله ﷺ ما يرويه عن جبريل عن الله عز وجل: «مازال عبدى يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وإن سألنى لأعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه»[٢].

فالمراد بكنت سمعه وبصره إنكشاف الأمر لمن تقرب إلى الله بالعبادة ، فهذا عبد ثبت فى مرتبته الإيمانية وافياً بشروطها كما وفىّ بالصدق فى سيره، وبالبصر فى عمل الطاعة، فأدى الفرائض وحفظ الحدود، ولزم المرتبة حتى قوم، وهذب ،وأدب ، وطهر، فنزل منزلة الفراسة، فبهذه الخصال تنقل من مرتبة إلى مرتبة حتى استقر فى مرتبة أهل القَربى؛ ويشهد لصحة الفراسة ما حدثنا به أحمد بن على، قال: حدثنا ثواب بن يزيد الموصلى، حدثنا ابنَ الهيثم البلدى، حدثنا أبو صالح كاتب الليث، حدثنا معاوية بن صالح عن راشد بن سعيد، عن أبى أمامة الباهلى، قال : قال رسول الله ﷺ : «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»[٣].

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن ، حـ٤ ، ص ١٨٠.

(٢) أخرجه البخارى فى باب التواضع، وأخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب التوبة، وأووده أنس بلفظ أخر وأورده الطبرانى وأحمد فى باب الزهد، وأورده البيهقى فى الأسماء والصفات، ص ٤٥٩.

(٣) أثبته الترمذى فى جامعة، وأورده الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، ص ٢٧١، وأبو نعيم فى حلية الأولياء، حـ١ ، ص ٢٨١ ، وأورده القشيرى فى الرسالة، حـ٢ ، ص ٤٨٠ ، وأورده ابن الجوزى فى صفوة الصفوة، حـ٣ ، ص ٢٣٩ ، وأخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير، وأورده الشوكانى فى نيل الأوطار، باب الفوائد، ص ٢٤٤ ، وقال السيوطى فى «اللآلئ المصنوعة» الحديث حسن وصحيح، ورواه ابن جرير عن ثوبان، ونصه: «احذروا فراسة المؤمن، فأنه ينظر بنور الله، وينطق بتوفيق الله» أنظر الجامع الصغير ، حـ١ و ص ٣٤، والسلمى : طبقات الصوفية، ص ١٥٦.

وهذه الفِرَاسةُ نشأت له من قربة من الله فأن القلب إذا قرب من الله انقطعت عنه معارَضات السوء المانعة من معرفة الحق وإدراكه، وكان تلقيه من مشكاة قريبة من الله، بحسب قربه منه، وأضاء له النور بقدر قربه فرأى فى ذلك النور مالم يره البعيد والمحجوب[1]. وسئل يوسف بن الحسين رحمه الله تعالى عن هذا الحديث فقال: هذا من رسول الله ﷺ حق، وخصوصية لأهل الإيمان، وزيادة كرامه لمن نوّر الله تعالى قلبه، وشرح صدره، وليس لأحد أن يحكم لنفسه بذلك، وإن كثر صوابه، وقل خطؤه، ومن لم يحكم لنفسه بحقيقة الإيمان والولاية والسعادة، فكيف يحكم لنفسه بفضل الكرامة، وإنما ذلك فضله لأهل الإيمان[2].

أورد ابن كثير عن ثابت عن أنس بن مالك قال، قال النبى ﷺ : «إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم»[3]، ثم قرأ النبى ﷺ أن فى ذلك لأيات للمتوسمين[4]، وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: للناظرين، فمن نظر بنور بصره المركب فيه لم يدرك علم ذلك، ومن غلب على نور بصره النور المشرق فى قلبه حتى تأدى إلى عينه فذاك ينفذ إلى أمور كائنة لم تكن بعد، فرجع إليه ذلك النور بعلم شافٍ لأنه نور الله الذى قد نفذ فى الأشياء المقدرة إلى قيام الساعة فأبصرها[5].

وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن سلمة عن عياض بن عياض عن أبيه عن أبى مسعود عقبة بن عمرو رضى الله عنه، قال: خطبنا رسول

---

(١) ابن القيم : الروح، مكتبة المتنبى، القاهرة، ص ٢٣٨، ٢٣٩.

(٢) الطوسى : اللمع ، دار الكتب الحديثة، القاهرة،١٩٦٠، ص ٢٩٨.

(٣) أخرجه الترمذى والطبرانى من حديث أبى أمامه والترمذى من حديث أبى سعد وأبو نعيم والبزار بسند حسن عن أنس، وابن جرير من حديث عمر بن قيس عن عطية عن أبى سعيد الخضرى، وأورده الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول، ص ٧١، وأورده أيضا فى الفروق ومنعم الترادف ، مخطوط لوحة ٢٥، وأورده الطوسى فى اللمع، ص ١٧٣.

(٤) سورة الحجر ، أية ٧٥.

(٥) الحكيم الترمذى : الفروق ومنع الترادف، مخطوط ، لوحة ٢٥، ٢٦.

الله ﷺ خطبة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: «إن منكم منافقين فمن سميت فليقم ، حتى سمي ستة وثلاثين رجلاً، ثم قال : إن فيكم منافقين فاتقوا الله»(١). فهذه فِراسة صادقة لرسول الله ﷺ من قلب قد طهر وتصفى وتنزه من الأدناس وقرب من الله فهو ينظر بنور الله الذى جعله فى قلبه، وقد صدقت مشيئة الحق تبارك وتعالى حين حدث رسول الله ﷺ بقوله تعالى: «لو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم»(٢)، حقا لقد عرفهم رسول الله ﷺ بسيماهم وعلاماتهم، فقد صار قلبه كالمرآة الصافية تبدو فيها صور الحقائق على ما هى عليه فلا تكاد تخطئ له فِرَاسةٌ، وليس هذا من علم الغيب بل علام الغيوب قذف الحق فى قلبه، وإذا غلب على القلب النور فاض على الأركان وبادر من القلب إلى العين، فكشف بعين بصره بحسب ذلك النور وقد كان رسول الله ﷺ يرى أصحابه فى الصلاة وهم خلفه كما يراهم أمامه، ورأى بيت المقدس عياناً وهو بمكة ورأى قصور الشام، وأبواب صنعاء، ومدائن كسرى وهو بالمدينة، ورأى النجاشى بالحبشة لما مات وهو بالمدينة فخرج إلى المصلى فصلى عليه(٣). سئل الحسن النورى، من أين تولدت فِرَاسةُ المتفرسين؟ فقال: من قوله تعالى: «ونفخت فيه من روحى»(٤)، فمن كان حظه من ذلك النور أتم، كانت مشاهدته أحكم، وحكمه بالفراسة أصدق وإن الله سبحانه وتعالى خصّ صحابة رسول الله ﷺ ببصائر وأنوار بها يتفرسّون وينظرون بنور الله(٥)

(١) أورده ابن كثير فى تفسير القرآن ، حـ ٤، ص ١٨٠.

(٢) سورة محمد ، آية ٣٠ .

(٣) ابن القيم : الروح، ص ٢٣٨، ٢٣٩.

(٤) سورة الحجر، آية ٢٩، سورة ص، آية ٧٢.

(٥) القشيرى : الرسالة القشيرية، حـ ٢ ، ص ٤٨٤.

ثالثا : الفِرَاسةُ عند الصحابة.:

لأبى بكر الصديق رضى الله عنه معان وفيوضات تخصه غير التى يتعلق بها أهل الحقائق والأرباب، فقد جاء عن بكر بن عبد الله المزنى أنه قال: ما فاق أبو بكر رضى الله عنه جميع أصحاب رسول الله ﷺ بكثرة الصوم والصلاة، ولكن بشئ كان فى قلبه، قال بعضهم : الذى كان فى قلبه الحبّ لله عز وجل والنصيحة له من الله(١).

وإمام المتفرسين وشيخ المتوسمين الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه، الذى لم يكن تخطئ له فِرَاسةٌ، وكان يحكم بين الأمة بالفراسة المؤيدة بالوحى الإلهى، ومن فراسته التى تفرد بها أنه قال: يارسول الله؛ لو اتخذنا من مقام ابراهيم مصلىً ؟ فنزلت الآية الكريمة: «واتخذوا من مقام إبراهيم مُصَلىً»(٢). وقال : يارسول الله لو أمرت نساءك أن يحتجبن؟ فنزلت أية الحجاب : «يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن»(٣) وقد بلغ من قوة فراسته وسلطان إلهامه أن نطق وهو على المنبر بالمدينة ياسارية – قائد جيش المسلمين بنهاوند – الجبل، الجبل ، فسمع الجيش كلمته هذه وهم منه على مسيرة شهر، فانحازوا إلى الجبل، واعانهم الله بذلك النداء وكشف الله عن بصيرة عمر فرأى ذلك الخطر كأنه أمامه ينظر إليه(٤).

---

(١) الطوسى : اللمع، ص ١٧١.

(٢) سورة البقرة ، آية ١٢٥.

(٣) سورة الأحزاب ، آية ٩٥ ، وانظر ابن القيم: الطرق الحكمية، ص ٣١ ، وانظر ابن الجوزى: صفة الصفوة، تحقيق محمود فاخورى ، دار الوعى العربى ، (١٣٩٣هـ، حـ١ ، ص ٢٧٦ ، فى الصحيحين من حديث أنس رضى الله عنه قال : قال عمر وافقت ربي في ثلاث : قلت : يارسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت «واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى» ، وقلت : يارسول الله إن نساءك يدخل عليهن البرّ والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن، فنزلت آية الحجاب، واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه فى الغيرة عليه فقلت لهن : عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، فنزلت الآية، أورد الحديث البخارى فى صحيحه جـ٣ ، ص ٨٣، وصحيح مسلم ، كتاب فضائل الصحابة حديث رقم ٢٣٩٩. وانظر ابن الجوزى : التبصرة، مؤسسة جمال ، بيروت، ط ١٩٧٠ ، حـ١ ، ص ٤١٨ .

(٤) الطوسى : اللمع، ص ١٧٣ ، وانظر الكلاباذى: التعرف لأهل التصوف ، تحقيق محمود النواوى، ط ٢ ، ١٩٨٠ ، ص ٨٨.

وروى عبد الله بن سلمه رضى الله عنه قال: دخلنا على عمر ومعنا نفر من مذحج فيهم الأشترّ النخعى فجعل ينظر إليه ويصوب بصره، وقال أمنكم هذا، قلت : نعم، فلأى بالله تسأله؟ قال : ماله، قاتله الله إنى لأرى للمسلمين منه يوماً عصيباً، وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: ما حذر عمر شيئاً قط فتكلم به إلا كان، وصدق قول الرسول الكريمﷺ «إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم»(١).

وعن فراسة عثمان رضى الله عنه ، دخل عليه رجل من الصحابة وقد رأى إمرأة فى الطريق فتأمل محاسنها، فقال له عثمان يدخل علىّ أحدكم وأثر الزنا ظاهر على عينيه، فقال الرجل: أوحى بعد رسول الله ﷺ ؟ فقال عثمان : لا ولكن تبصرة وفراسة صادقة(٢). فهذا شأن الفراسة، هى نور يقذفه الله فى القلب فيخطر له الشئ، فيكون كما خطر له، وينفذ إلى العين فيرى مالا يراه غيرها.

أما قدوة المتقين الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه فحياته حافلة بالفِرَاسةُ والبصيرة، فكان المنبئ عن حقائق التوحيد والمشير إلى لوامع علم التفريد، دعاه الرسولﷺ بسيد العرب، فقالت السيدة عائشة: ألست سيد العرب؟ فقال الرسولﷺ : «انا سيد ولد أدم ، وعلى سيد العرب»(٣) لما له من بصيرة نافذة وفراسة محققه. وعن عبد الله ابن مسعود قال: إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلا له ظهر وبطن وإن علياً بن أبى طالب عنده علم الظاهر والباطن (٤) . وروى الاصبغ بن نباتة، ومجاهد عن ابن عباس عن الرسولﷺ قال: «أنا دار الحكمة وعلىٌ بابها»(٥). فقد حباه الله

---

(١) ابن القيم : الروح ، ص ٢٣٩ ، الحكيم الترمذى : نوادر الأصول ، ص ٢٧١ ، الفروق ومنع الترادف، مخطوط ، لوحة ٢٦ .

(٢) ابن القيم : الروح، ص ٢٤٠ ، ابن القيم : الطرق الحكمية، ص ٣١ ، وانظر محى الدين بن عربى: الفتوحات المكية، المجلد الثانى، ص ٢٣٥ .

(٣) أخرجه أبو نعيم الأصفهانى فى حليه الأولياء، حـ١ ، ص ٦٣ .

(٤) رواه عبد الله بن مسعود، وأورده صاحب حلية الأولياء. حـ٢ ، ص ٦٥ .

(٥) رواه مجاهد عن ابن عباس عن الرسول ﷺ ، وأورده صاحب حلية الأولياء، حـ١ ،ص ٦٤ .

بفكر ثاقب ورؤية نافذة وفراسة إلهية ، فكان الرسولﷺ يبعثه للفتوحات فيعطيه الراية فلا يرتد حتى يفتح الله عز وجل عليه.[1] وعن الجنيد رحمه الله قال: رضوان الله على أمير المؤمنين عليّ رضى الله عنه، أعطى علم لدنى ، والعلم اللدنى هو العلم الذى خصّ به الخضر عليه السلام، قال تعالى: « وعلمناه من لدنا علما»[2].

رابعا : الفِرَاسةُ عند التابعين والأئمة :

عن الإمام الشافعى (ت ٢٠٤ هـ) ، قيل : كان الشافعى ، ومحمد بن الحسن رحمهما الله تعالى، فى المسجد، فدخل رجل، فقال محمد بن الحسن: أتفرّس أنه نجار، وقال الشافعى: أنفرس أنه حداد، فسألاه، فقال : كنت قبل هذا حدّاداً ، والساعة أنجر[3] .

وقال الحميدى : خرجت أنا والشافعى من مكة، فلقينا رجلاً، فقال الشافعى : هذا نجار أو خياط، فسألت الرجل، فقال: كنت نجاراً وأنا اليوم خياط[4].

وعن عبد الرحمن السلمى (ت ٤١٢هـ) ، قال : سمعت جدى أبا عمرو بن نجيد (ت ٣٦٦هـ) ، يقول : كان شاه الكرمانى (ت ٣٠٠ هـ) حاد الفراسة، لا يخطئ، ويقول : من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمر باطنه بدوام المراقبة، وظاهره باتباع السّنه، وتعود أكل احلال لم تخطئ فراسته[5].

وهذا ابراهيم الخواص (ت ٢٩١هـ) ، كان فى الجامع فأقبل شاب، فقال الخواص لأصحابه يقع لى أنه يهودى، فكلهم كره ذلك، وخرج الشاب ثم رجع إليهم ، فقال: ماذا قال الشيخ فىّ؟ فأحتشموه فألح عليهم فقالوا قال :

---

(١) أبو نعيم الأصفهانى : حلية الأولياء، حـ١ ، ص ٦٥.

(٢) سورة الكهف، أية ٦٥ ، وانظر الطوسى : اللمع، ص ١٧٩.

(٣) القشيرى : الرسالة القشيرية، حـ ٢ ، ص ٤٨٩ ، ابن القيم: الروح ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠.

(٤) فخر الدين الرازى : مناقب الإمام الشافعى، تحقيق أحمد السقا، مكتبة الكليات الأزهرية، ص ٣٣٠.

(٥) القشيرى: الرسالة القشيرية، حـ٢ ، ص ٤٨٣ ، ابن القيم: مدارج السالكين ، حـ٢ ، ص ٥٠٥.

إنك يهودى ، فجاء فأكب على يدى فأسلم، فقلت: ما السبب؟ فقال: نجد فى كتابنا أن الصديق لا تخطئ فِرَاسته، وقلت امتحن المسلمين فتأملتهم، وقلت إن كان فيهم صديق ففى هذه الطائفة فلبست عليكم، فلما أطلع الشيخ علىّ وتفرسنى علمت أنه صديق(١).

وروى عن الشعبى أنه قال: لداود الأودى لاتخرج من الدنيا حتى تكوى فى رأسك، فاعتل بعد ذلك حتى كوى فى رأسه(٢).

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، أفرس الناس ثلاثة : إمرأة فرعون فى موسى، حيث قالت : «قرة عين لى ولك، لاتقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً» (٣)، وصاحب يوسف ، حيث قال لامرأته : «أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً»(٤). وأبو بكر الصديق فى عمر رضى الله عنهما حيث جعله الخليفة بعده(٥).

ومن محاسن الفِرَاسةُ والفطنة فى الأجوبة الحصيفة وانتقاء الألفاظ الرشيدة، أن هارون الرشيد رأى فى داره حزمه خيرزان ، فقال لوزيره الفضل بن الربيع، ما هذا؟ قال : عروق الرماح يا أمير المؤمنين، ولم يقل الخيرزان لموافقة اسم أمه. وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، أنه خرج يعسّ المدينة بالليل، فرأى ناراً موقدة فى خباء، فوقف وقال: «يا أهل الضوء» وكره أن يقول : يا أهل النار.

وسئل العباس رضى الله عنه: أنت أكبر أم رسول اللهﷺ؟ فقال هو أكبر منى، وأنا ولدت قبله.

---

(١) ابن القيم : الروح ، ص ٢٤٠.

(٢) الحكيم الترمذى : الفروق ومنع الترادف، مخطوط ، لوحة ٢٦ ، الحكيم الترمذى : نوادر الأصول ، ص ٢٧١.

(٣) سورة القصص، آية ٩.

(٤) سورة يوسف ، آية ٢١

(٥) ابن القيم : الطرق الحكمية، ص ٣١، أنظر ابن القيم: مدارج السالكين، حـ٢ و ص ٥٠٦.

وسئل عن ذلك قباث بن اشيم؟ فقال : رسول الله ﷺ أكبر منى، وأنا أسن منه[1]. فهؤلاء أكابر الأولياء قد أعطاهم الله نوراً فى قلوبهم يكشفون به عن أشياء تأتى فى المستقبل أو تقع فى أماكن بعيدة ، وذلك بفضل مازودهم الله به من شفافية القلوب واستنارة البصيرة.

خامسا : الفراسة عند فلاسفة الإسلام:

يقذف العلم تارة فى القلب كأنه ألقى فيه من حيث لا يدرى ، وتارة يكتسب بطريق التعلم وهو النظر والاستدلال، فالذى يحصل بغير طريق الاكتساب يسمى إلهاماً وفراسة، والذى يحصل بطريق الاكتساب يسمى بالمعرفة الحسية أو العقلية، وهذا هو طريق الفلاسفة، وهو ما اصطلحنا عليه بالفراسة الفلسفية[2].

يميز الفارابى (ت ٣٣٩هـ) بين العقل الإنسانى والعقل الفعال والذى سمى فعالاً بالقياس إلى العقل الإنساني الذى ينفعل به ويستفيد منه، وغاية العقل الإنسانى أن يتصل بالعقل الفعال، وبهذا الاتصال يقترب الإنسان من الله، وهذا الاتصال بالعقل الفعال إنما يستطيعه القليلون من أهل الصفاء الذين لم يشغلهم عالم المادة عن عالم الروح، فسعوا إلى اختراق حجب الأرض وتطلعوا إلى اجتلاء أنوار السماء، وبذلك يرى الفارابى أن أهل الصفاء هم الذين تتجلى لهم الأنوار الإلهية والفيوضات الربانية فيمنّ الله عليهم بالنعم والبركات إلا أن الفارابى يعتبر الفلاسفة من أهل الصفاء ولهم طريقتهم فى اجتلاء تلك الأنوار وذلك بالاتصال بالعقل الفعال، فما يستطيعه أهل الحق بالقوة القدسية التى أودعها الله أياهم يستطيعه الفيلسوف بالنظر العقلى والتأمل الفلسفى والاتصال بالعقل الفعال الذى هو عند الفارابى منبع الوحى والإلهامات السماوية، وعلى ذلك يرى الفارابى أن الفلسفة والوحى الإلهى الذى يتوسم به أهل الحق ويتفرسون به الموجودات كلاهما ثمرة من ثمرات الجود الإلهى، يفيضهما الله

(٤) ابن القيم : الطرق الحكمية، ص ٤٨، ٤٩.

(١) الغزالى : إحياء علوم الدين، المكتبة التجاريةبالاسكندرية، حـ٣، ص ١٨ و وانظر عماد الدين الأموى : حياة القلوب ، بهامش قوت القلوب للمكى ، دار صادر ، بيروت ، حـ٢، ص ٢٦١، ٢٦٢.

على من يشاء من عباده[١] . نلمح من كلام الفارابى أن الفيض الإلهى بالمنن الربانية يأتى كسباً من العبد الذى طهر ونقى وهذب فمنّ الله عليه.

عرف الفلاسفة علم الفراسة بأنه استدلال من الخلق على الأخلاق، واتفق معهم الإمام الغزالى (ت ٥٠٥هـ) فى هذا التعريف، إلا أنه خالفهم فى حكمهم بأن الاقتران المشاهد فى الوجود بين الأسباب والمسببات، اقتران تلازم بالضرورة، فهم يقولون ليس فى المقدور ولا فى الإمكان، إيجاد السبب دون المسبب، ولا وجود المسبب دون السبب ، بيد أن الإمام الغزالى نازعهم فى ذلك ويرى عدم ضرورية هذا الاقتران إنطلاقاً من إتيان المعجزات على يد الأنبياء والرسل، فهو ينكر على مبدأ العلية خاصية الضرورة والفلاسفة يوجبون ذلك[٢].

ويؤكد الغزالى على أن الاقتران بين ما يعتقد فى العادة سبباً ، وبين ما يعتقد مسبباً ، ليس ضرورياً، وأن كل شيئين ليس هذا ذاك، ولاذاك هذا، ولا إثبات أحدهما متضمنا لإثبات الآخر، ولا نفيه متضمنا لنفى الآخر، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر، ولا من ضرورة عدم أحدهما ، عدم الآخر، فإن الاقتران من تقدير الله سبحانه وتعالى فى خلقه، ولا يكون ضرورياً فى نفسه، غير قابل للاقتران[٣] . ويرى ابن رشد (ت ٥٩٥هـ) أن النفس المقدسة الصافية لديها قوة حدس تظهر فى سرعة الانتقال من معلوم إلى معلوم، فرب ذكى إذا ذكر له المدلول تنبه للدليل، وإذا ذكر له الدليل تنبه للمدلول من نفسه، ورب نفس مقدسة صافية يستمر حدسها فى جميع المعقولات وفى أسرع الأوقات، فالنبى الذى له معجزة لا يحتاج فى المعقولات إلى معلم، بل كأنه يتعلم من نفسه، وهو الذى وصف بقوله تعالى: «يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار، نور

---

(١) الفارابى : إحصاء العلوم، تحقيق عثمان أمين ، مكتبة الأنجلو، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٦٨، ص ٤٥، ٤٦.

(٢) الغزالى : تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف ، ط٦ ، ١٩٨٠، ص ٢٣٥، ٢٣٦.

(٣) المرجع نفسه ، ص ٣٩

على نور، يهدى الله لنوره من يشاء»[1] فقد هداه الله تعالى لأنواره الإلهية وفيوضاته الربانية[2].

وقد ميز فخر الدين الرازى (ت ٦٠٦ هـ) بين الفِرَاسةْ الفلسفية والفِرَاسةُ الصوفية والتى يعدها هبة تفضلية من الله، ويرى أن العلوم القريبة من علم الفِرَاسةُ هى تلك العلوم الخفية، أى العلوم التى لا يمكن اكتسابها بالتعليم، وإنما يكتسبها كل من هو حاصل على قوة الحدس، والفِرَاسةْالفلسفية هى استدلال بالأحوال الظاهرة على الأخلاق الباطنة، والخلق الظاهر على الخلق الباطن، ولابد أن يكون تابعين للمزاج البدنى فهما معلولان للمزاج الأصلى وعلى ذلك فالفِرَاسةُ عند فخر الدين الرازى إما تأتى كخاطر فى القلب متى كانت النفوس مشرقة وصافية، فالنفوس الصافية قد تقدر على معرفة المغيبات حال اليقظة[3]. وإما تأتى عن طريق الاستدلال بالأحوال الظاهرة والذى يعتمد على العلامات والدلائل الجسمانية والاشارات المحسوسة، وهذا علم يقينى الأصول، ظنى الفروع[4]، وهذا النوع من علم الفراسة هو الذى يجرى فيه التعليم والتعلم[5].

ويضيف فخرالدين الرازى أن علم الفِرَاسةُ يلح على ضرورة الاستعانة بأكثر عدد ممكن من العلامات، وفى حالة الوقوع فى التناقض يبين الوسيلة لرفع هذا التناقض وذلك بوضع ترتيب للأعضاء من حيث قيمتها، والطرق التى يعرف

(١) سورة النور، آية ٣٥

(٢) ابن رشد : تهافت التهافت ، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، ط٢، ١٩٧١، جـ٢ ،ص ٧٧١، ٧٧٢.

(٣) نلمح فى كلام فخر الدين الرازى ملمحاً صوفياً ذوقياً، ولعله تأثر فى ذلك بالفكر الغنوصى اليونانى الذى انتقل إلى العالم الإسلامى ، ولقى الترحاب والقبول لموافقته لفكرة المنّة الإلهية.

(٤) نلاحظ أن الظن يحصل من تقلب القلب فى الإمارات والعلامات ، أما الفراسة فتحصل بتجلى نور رب السماوات ، ومن قوى فيه نور الروح المذكور فى قوله تعالى «ونفخت فيه من روحى» قويت فيه هذه الفراسة.

(٥) يوسف مراد : الفراسة عند العرب ، والفراسة لفخر الدين الرازى ، ترجمة مراد وهبة ، هيئة الكتاب ، عام ١٩٨٢م، ص ٨٦، ١٩٨٧م.

بها أخلاق الناس ليست متساوية القيمة، فالفحص الطبى فى رأى الرازى يأتى فى مقدمة هذه الطرق، وهو يرى أن أصول علم الفراسة مستندة الى العلم الطبيعى، وتفاريعه مقررة التجارب مثل الطب سواء بسواء، فكل طعن يذكر فى هذا العلم فهو بعينه متوجه إلى الطب، وهناك نص مهم يكشف تبعية الفراسة للطب، «إن أقوى الأقسام المذكورة دلالة على هذه الأحوال الباطنةو الاستدلال بأحوال الأخلاط والأمزجة ، والقوى والأسنان والأجناس، لأنها كالأمور الذاتية الجوهرية، ويتلوها الاستدلال بأحوال الأهوية والأغذية لأنها كالأمور الخارجية الملازمة، ويتلوها الاستدلال بالمشابهات الحاصلة بين الذكور والإناث من الناس، وفى أخر الأمر تعتبر الدلائل المستنبطة من مشابهة الحيوانات»(١).

ويفرق محى الدين بن عربى (ت ٦٣٨ هـ) بين الفراسة الإلهية والفراسة الفلسفية، فيقول : اعلم إن الفراسة إذا اتصف بها العبد، له فى المتفرس فيه علامات ، بتلك العلامات يستدل ، والعلامات منها طبيعية مزاجية وهى الفراسة الفلسفية، ومنها روحانية نفسية إيمانية وهى الفراسة الإلهية، وهى نور إلهى فى عين بصيرة المؤمن يعرف به، إذ يكشف له ما وقع من المتفرس فيه، أو ما يقع منه، فإذا أراد الله اصطفاء عبد وأن يخصه بهذا المقام طهر قلبه وشرحه وجعل فيه سراجاً منيراً من إيمانه خاصة يسرجه من الأسماء الإلهية.

رب الفِرَاسَةُ من كان الإله له ٠٠ عينا وسمعا وذاك الناشئ الشادى(٢).

(١) المرجع نفسه ، ص ٨٧، ٩٦.

(٢) محى الدين بن عربى : الفتوحات المكية، المجلد الثانى، ص ٢٣٥، ٢٤١.

ابن القيم والفِرَاسةُ :

تعريف ابن القيم للفِرَاسةُ :

يعرف ابن القيم الفِرَاسةُ بأنها نور يقذفه الله فى القلب، يفرق به بين الحق والباطل، وبين الصادق والكاذب، والنور إذا قذف به فى القلب اتسع له الصدر وانشرح، ونور القلب من نور الحق عز وجل[1] قال تعالى: «إن فى ذلك لآيات للمتوسمين»[2]، قال مجاهد: للمتفرسين، وقال ابن عباس رضى الله عنهما: للناظرين، وقال قتادة: للمعتبرين، وقال مقاتل : للمتفكرين، ولا تنافى بين هذه الأقوال، فإن الناظر متى نظر فى آثار ديار المكذبين ومنازلهم، وما آل إليه أمرهم، أورثه الله فراسة وعبرة وفكرة، وقال تعالى فى حق المنافقين، «ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول»[3]، فالأول : فرَاسة النظر والعين، والثانى: فراسة الأذن والسمع[4] . وعن النبى ﷺ قال: «اتقوا فرَاسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»[5]. ثم قرأ قول الله عز وجل: «إن فى ذلك لآيات للمتوسمين»[6]، فالتوسم من السيما، وهى العلامة، فسمى المتفرس متوسماً، لأنه يستدل بما يشهد على ما غاب، فيستدل بالعيان على الإيمان ، ولهذا خصّ الله تعالى هؤلاء بالآيات[7] .

---

(١) سئل رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: «أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه»، ما هذا الشرح؟ فقال هو التوسعة أى النور. انظر الغزالى : إحياء علوم الدين، حـ ٣ ، ص ٢٤ .

(٢) سورة الحجر، آية ٧٥.

(٣) سورة محمد ، آية ٣٠

(٤) ابن القيم : مدارج السالكين ، حـ٢ ، ص ٥٠٣

(٥) سبق تخريج الحديث، قال أبو الدرداء : المؤمن من ينظر بنور الله من وراء ستر رقيق والله إنه ليقذفه الله فى قلوبهم ويجريه على ألسنتهم. انظر الغزالى : إحياء علوم الدين، حـ٣ ، ص ٢٤ .

(٦) سورة الحجر ، آية ٧٥.

(٧) قال تعالى: «قد بينا الآيات لقوم يوقنون» وروى الحسن عن الرسول ﷺ أنه قال: «العلم علمان؛ فعلم باطن فى القلب فذلك هو العلم النافع» وسئل بعض العلماء عن العلم الباطن ما هو؟ فقال: هو سر من أسرار الله تعالى يقذفه الله تعالى فى قلوب أحبابه لم يطلع عليه ملكاً ولا بشراً ، انظر الغزالى : إحياء علوم الدين، حـ٣ ، ص ٢٤ .

والانتفاع بها لأنهم يستدلون بما يشاهدون منها على حقيقة ما أخبرت به الرسل من الأمر والنهى، والثواب والعقاب، وقد ألهم الله ذلك لأدم، وعلمه إياه حين علمه أسماء كل شئ، وكل قلب فهو قابل لذلك، وبه تقوم الحجة، وتحصل العبرة، وتصح الدلالة، وبعث الله الرسل مذكرين ومنبهين ومكملين لهذا الاستعداد، بنور الوحى والإيمان، فينضاف ذلك إلى نور الفراسة والاستعداد ، فيصير نوراً على نور، فتقوى البصيرة، ويعظم النور ويدوم ويزداد حتى يرى على الوجه والجوارح، ويظهر فى الأقوال والأعمال(١) .

ويتفق ابن القيم مع شيخ الإسلام الأنصارى الهروى (ت ٤٨١هـ) فى أن البصيرة تنبت فى أرض القلب الفراسه الصادقة(٢).

وقال شيخ الإسلام الهروى، الفراسة : استئناس حكم غيب بلا استدلال بشاهد(٣) وفسر الإمام ابن القيم ذلك بقوله : الاستئناس كقولك أنست كذا، أى رأيته بالعين أو بالقلب، فإن أدركت بهذا الاستئناس حكم غيب، كان فراسة، وإن كان بالعين كان رؤية، وإن كان بغيرها من المدارك، فبحسبها، وهذا الحكم يأتى للعارف بلا استدلال بشاهد على الغائب كما هو الحال بالاستدلال بالبروق والرعود على الأمطار، وكاستدلال الطبيب بالسّحنة على حال المريض، فهذا خارج عن الفراسة التى تُتكلم فيها، هو نوع فراسة لكنها غير الفراسة الصوفية(٤).

ويجدر بنا لبيان وتوضيح الفِرَاسةُ فى فكر ابن القيم أن نعرض بداية للأحوال والمقامات ونبين المنازل والمدارج والفرق بينهما، وكيف ينتقل المريد من منزلة الى أخرى حتى يستقر السالك فى منزلة الفِرَاسةُ.

---

(١) ابن القيم: مدارج السالكين، حـ١، ص ١٤٥ ، ١٤٦.

(٢) يرى شيخ الإسلام الهروى أن البصيرة تفجر المعرفة، وتثبت الإشارة، وتنبت الفراسة، فصاحب البصيرة واليقين والأدب لا يخلو من الفراسة التى يؤتاها المؤمنون. انظر السيد محمود أبو الفيض : التمكين فى شرح منازل السائرين للأنصارى الهروى، دار النهضة، القاهرة ١٩٦٩، ص ٢٠٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٠٤.

(٤) ابن القيم : مدارج السالكين، حـ٢، ص ٥١٢.

أولاً : الحال والمقام:

الحال والمقام، مرحلة مجاهدة للنفس يمر بها السالك، فيتدرج فى المدارج مترقياً من مقام إلى مقام أعلى حتى يستقر فى أعلى المقامات؛ وهو مقام أهل القربى. والمقام عند القشيرى: ما يتحقق به العبد بنزوله فيه وبما اكتسب له من الآداب؛ مما يتوصل إليه بنوع تصرف، ويتحقق به بضرب تطلب، ومقاساة تكلف. فمقام كل أحد؛ موضع إقامته عند ذلك، وما هو مشتغل بالرياضة له، وشرطة أن لا يرقى من مقام إلى مقام آخر، مالم يستوف أحكام ذلك المقام، فإن من لاقناعة له لا يصح له التوكل، ومن لا توكل له لايصح له التسليم، وكذلك من لاتوبة له لا يصح له الإنابة، ومن لا روع له لا يصح له الزهد.

والمقام: هو الإقامة ولا يصحّ لأحد منازلة مقام إلا بشهود إقامة الله تعالى إياه بذلك المقام، ليصبح بناء أمره على قاعدة صحيحة .

والحال: معنى يرد على القلب، من غير تعمد، ولا اجتلاب، ولا اكتساب، كالطرب، أو الحزن، أو البسط، أو القبض، أو الشوق، أو الانزعاج، وغير ذلك .

فالأحوال: مواهب، والمقامات : مكاسب.

والأحوال تأتى من عين الجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود، وصاحب المقام ممكن فى مقامه، وصاحب الحال مترق فى حاله، وقال بعض أهل الطريق؛ الأحوال كالبروق، فإن بقى فحديث نفس وقالوا: الأحوال كاسمها، إنها كما تحلُّ بالقلب تزول فى الوقت وأنشدوا:

لو لم تُحلّ ماسميت حالاً ٠٠٠ وكل ماحالَ فقد زالا[1]

ويعرف الطوسى صاحب اللمع (ت ٣٧٨هـ) المقام: بأنه مقام العبد بين يدى الله عز وجل، فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضيات

(١)القشيرى : الرسالة القشيرية ، حـ١ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٦.

والانقطاع إلى الله عز وجل، وقال تعالى: «ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد»[١]، وقال تعالى : «وما منا إلا له مقام معلوم[٢]. أما الأحوال فهى ما يحل بالقلوب، أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار، وليس الحال من طريق المجاهدات والعبادات والرياضيات كالمقام،وانماالحال كما قال الجنيد (ت ٢٩٨هـ) : نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم[٣].

والمقام عند الهجويرى (ت ٤٦٥هـ) هو مكان إقامة العبد فى الطريق إلى الله، وأدائه للواجبات التى يستدعيها هذا المقام، والمحافظة عليها حتى يبلغ الكمال الممكن للإنسان، والحال هو ما يصل من الله تعالى إلى قلب الإنسان، بدون أن يكون له قدرة على رده إذا حضر، أو استحضاره إذا غاب بحوله وقوته، فالمقام من نوع الأعمال، والحال من نوع العطاء، لذلك كان صاحب المقام واقفاً أمام مجاهدة نفسه، وأما صاحب الحال فهو فان فى نفسه، واقف بالحالة التى يكرمه الله تعالى بها[٤].

(١)سورة ابراهيم ، آية ١٤.

(٢) سورة الصافات ، آية ١٦٤.

(٣) الطوسى : اللمع ، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٠، ص ٦٥، ٦٦.

يقول الإمام السهروردى (ت ١٣٢هـ) الترقى من حال إلى حال أعلى منه كالتحقق بالفناء والتخلص إلى البقاء، والترقى من عين اليقين إلى حق اليقين، وحق اليقين نازل يخرق شغاف القلب ذلك أعلى فروع المشاهدة، وقد قال رسول الله ﷺ : «اللهم إنى أسألك إيماناً يباشر قلبى» فهذه الحالة التى خرقت شغاف القلب ووصلت إلى سويدائه وهى حق اليقين ، هى أسنى العطايا وأعز الأحوال وأشرفها، وهى محض موهبة لا تكتسب، سميت كل المواهب من النوازل بالعبد أحوالا، لأنها غير مقدرة للعبد بكسبه، فأطلق القول إن المقامات مكاسب، والأحوال مواهب، وعلى الترتيب الذى درجنا عليه كلها مواهب إذ المكاسب محفوفة بالمواهب، والمواهب محفوفة بالمكاسب، فالأحوال مواجيد ، والمقامات طرق للواجيد، ولكن فى المقامات ظهر الكسب، وبطنت المواهب، وفى الأحوال بطن الكسب وظهرت المواهب، فالأحوال مواهب علوية سماوية، والمقامات طرقها، وقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه : « سلونى عن طرق السماوات فإنى أعرف بها من طرق الأرض» إشارة إلى المقامات والأحوال. انظر السهروردى: عوارف المعارف، ملحق بإحياء علوم الدين للغزالى، حـ ٥، ص ٢٢٥.

(٤) الهجويرى : كشف المحجوب، تحقيق ابراهيم شتا، دار التراث العربى، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ١٢٦

ويعرف القاشانى (ت ٧٣٥هـ) ؛ الأحوال بأنها المواهب الفائضة على العبد من ربه، إما واردة عليه ميراثاً للعمل الصالح المزكى للنفس المصفى للقلب، وإما نازلة من الحق إمتناناً محضاً ، وإنما سميت أحوالاً لتحول العبد بها من الرسوم الخلقية ودركات البعد إلى الصفات الخفية ودرجات القرب، وذلك هو معنى الترقى.

أما المقام فهو إستيفاء حقوق المراسم فإن لم يستوف ما فيه من المنازل، لم يصح له الترقى إلى ما فوقه، كما أن من لم يتحقق بالقناعة حتى تكون له ملكة، لم يصح له التوكل، ومن لم يتحقق بحقوق التوكل لم يصح له التسليم، وليس المراد من هذا الاستيفاء ألا يبق عليه بقية من درجات المقام الأدنى حتى يمكن له الترقى إلى المقام العالى، فأن أكثر بقايا الأدنى ودرجاته الرفيعة إنا تستدرك فى الأعلى، بل المراد تمكنه من المقام بالتثبيت فيه بحيث لا يتحول فيكون حالاً فإنه يسمى مقاماً لإقامة السالك فيه[١].

ويرى الحكيم الترمذى أن الحال والمقام هما حالة القلب من العقد والإيمان والترقى إلى درجة المعرفة بالله، أى مقام القلب ومنزلته من الله سواء أكان فى منزلة المؤمنين أم الصديقين أم فى منزلة أهل القربى منزلة مالك الملك، فالأحوال تختلف فى الدرجة وهى منن وحظوظ يهبها الله لمن يجتيبه، وإن شئت فقل هى نوع من الجباية يحس القلب نعيمها نتيجة للحالات التى ترد عليه من النفس أو مما يرسل الله له من المنن والمنح.

أما المقامات فهى درجات يرقى إليها السالك متوخياً ومشتاقاً للوصول إلى الغاية العليا، فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب، ويؤكد الحكيم دوام الصفة التى ترد على السالك حتى تسمى حالاً ، ومتى ثبت هذا الحال تحددت درجة السالك وبذلك يتحقق له مقامه[٢].

---

(١) القاشانى : اصطلاحات الصوفية، تحقيق كمال جعفر، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨١، ص ٢٦، ٢٧.

(٢) الحكيم الترمذى : معرفة الأسرار ، تحقيق ابراهيم الجيوشى، دار النهضة ، ١٩٧٧، ص٤٢.

ويقول الإمام ابن القيم هناك اختلاف كبير فى عدد المقامات وترتيبها بين أرباب السلوك وأهل الطريق[١]، كلٌ يصف منازل سيره وحال سلوكه، ولهم اختلاف فى بعض منازل السير، هل هى من قسم الأحوال؟ والفرق بينهما؛ أن المقامات كسبية والأحوال وهبية، ومنهم من يقول: الأحوال من نتائج المقامات، والمقامات نتائج الأعمال، فكل من كان أصلح عملاً كان أعلى مقاماً، وكل ممن كان أعلى مقاماً كان أعظم حالاً.

ومما اختلفوا فيه الرضا أهو حال؟ أم مقام؟ قال بعض الشيوخ: إن حصل بكسب فهو مقام، وإلا فهو حال.

ويرى ابن القيم أن الواردات والمنازلات لها أسماء باعتبار أحوالها، فتكون لوامع وبوارق ولوائح عند أول ظهورها وبدوها، كما يلمع البارق ويلوح عن بعد، فإذا نازلته وباشرها فهى أحوال، فإذا تمكنت منه وثبتت له من غير انتقال فهى مقامات، وهى لوامع ولوائح فى أولها، وأحوال فى أوسطها، ومقامات فى نهايتها، فالذى كان بارقاً هو بعينه الحال، والذى كان حالا هو بعينة المقام ، وهذه الأسماء له باعتبار تعلقه بالقلب، وظهوره له، وثباته فيه، وقد ينسلخ السالك من مقامه كما ينسلخ من الثوب ، وينزل إلى ما دونه، ثم قد يعود إليه، وقد لا يعود، ومن المقامات : ما يكون جامعا لمقامين، ومنها ما يكون جامعاً لأكثر من ذلك، ومنها ما يندرج فيه جميع المقامات

(١) المقامات عند ابن عطاء الله السكندرى (ت ٧٠٩ هـ)، تسعة : التوبة، الزهد، الصبر، الشكر ، الخوف، الرجاء، الرضا، التوكل، المحبة، ولايصح كل واحد من هذه المقامات إلا باسقاط التدبير مع الله . انظر أبو الوفا التفتازانى: ابن عطاء الله وتصوفه، مكتبة الانجلو، القاهرة، ط٢، ١٩٦٩، ص ٢٣٠. بينما المقامات عند الحكيم الترمذى سبع منازل: التوبة، الزهد، عداوة النفس ، المحبة، قطع الهوى، الخشية، أهل القربى، وكل منزلة بمثابة مقام يقيم فيه السالك ثم ينتقل إلى آخر حتى ينتهى إلى مقام أهل القربى، وما نجده عند الحكيم الترمذى على أنه أحوال نجده عند ابن القيم مقامات كالتوكل، والرجاء، والخوف ، والإنابه، وغير ذلك أنظر الحكيم الترمذى: منازل العباد من العبادة، تحقيق ابراهيم الجيوشى، دار النهضة ، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٣٥ ، لذا يقول الإمام السهروردى كثر الاشتباه بين الحال والمقام، فتراءى للبعض الشئ حالا وتراءي للبعض مقاما وكلا الرؤيتين صحيح لوجود تداخلهما ولابد من ذكر ضابط يفرق بينهما، فالحال سمى حالا لتحوله، والمقام مقاماً لثبوته واستقراره، وقد يكون الشئ بعينه حالا ثم يصير مقاماً . انظر السهروردى: عوارف المعارف، ملحق بأحياء علوم الدين للغزالى ، حـ٥، ص٥٥٢.

فلا يستحق صاحبه اسمه إلا عند استجماع جميع المقامات فيه، فالتوبة جامعة لمقام المحاسبة، ومقام الخوف، ولا يتصور وجوده بدونهما، والتوكل جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضا، ولا يتصور وجوده بدونها، وهكذا بالنسبة لمقام الرجاء والخوف والإنابة والزهد والمحبة والخشية والهيبة، ومقام الشكر جامع لجميع مقامات الإيمان ولذلك كان أرفعها وأعلاها وهو فوق مقام الرضا وهو يتضمن الصبر والتوكل والإنابة، والحب ، والاخبات ، والخشوع، والرجاء، فجميع المقامات مندرجة فيه، لا يستحق صاحبه اسمه على الإطلاق إلا باستجماع المقامات له[1] . ولهذا كان الإيمان نصفين: نصف صبر، ونصف شكر، والصبر داخل فى الشكر، فرجع الإيمان كله شكراً، والشاكرون هم أقل العباد ، كما قال تعالى: «وقليل من عبادى الشكور»[2]، وكل مقام من هذه المقامات فالسالكون إليه نوعان: أبرار، ومقربون، فالأبرار فى أذياله، والمقربون فى ذروته، وهكذا مراتب الإيمان جميعاً، فكل من النوعيين لايحصى تفاوتهم وتفاضل درجاتهم إلا الله[3].

ثانياً : المنازل والمدارج :

رتب ابن القيم منازل العباد ومدارج السالكين ، والتى أصطلح على تسميتها بمنازل «إياك نعبد وإياك نستعين» وأكد من خلالها على الإيمان الكامل بالله سبحانه وتعالى وبأصول العقيدة الإسلامية السليمة، وبيّن متطلبات كل منزلة وكيفية الارتقاء إلى المنزلة الأعلى حتى يستقر المريد فى مقام أهل القربى، ألا وهو مقام الولاية والذى يتبوأ السالك فيه مكانة قربى من الله سبحانه وتعالى يعاين الأنوار الإلهية ويمنح النفحات والفيوضات الربانية،

---

(١) يقول الهجويرى : ليس من الجائز أن يتعدى الإنسان مقامه بدون أن يؤدى فرائضه، فأول مقام هو التوبةو وبعدها الإنابة، وبعدها الزهد، وبعده التوكل ، وغير ذلك ، وليس من الجائز أن يدعى الإنسان مقام الإنابة بدون التوبة، أو الزهد بدون أن يكون له قدرة على الإنابة، أو التوكل بدون الزهد، وقد قال الله تعالى: «وما منا إلا له مقام معلوم» ، سورة الصافات، آية ٦٤ .
الهجويرى : كشف المحجوب، ص ٢١٦

(٢) سورة سبأ، آية ٣٤.

(٣) ابن القيم : مدارج السالكين ، حـ١ ، ص١٥١ – ١٥٤.

فيمنّ الله عليه من فضله، ويكشف له عن مكنون الغيب رحمة من الله بعبده، وإن شئت فقل قد منح هذا السالك المنح والمنن الإلهية ورفعت عنه الحجب وتمثل فيه قول الحق تبارك وتعالى: «فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد»(١)، فقد كشف غطاء السائرين إلى الله تعالى فى حياتهم ووصلوا إلى اليقين والعيان.

والمنازل ينتقل فيها القلب منزلة فى حال سيره إلى الله، وقد أكثر أهل الحق فى صفة المنازل وعددها، فمنهم من جعلها ألفاً، ومنهم من جعلها مائة، ومنهم من زاد ونقص، فكلٌ وصفها بحسب سيره وسلوكه(٢)، على أن الترتيب الذى يشير إليه كل مرتب للمنازل لا يخلو عن تحكم، ودعوى من غير مطابقة، فإن العبد إذا التزم عقد الإسلام، ودخل فيه كله، فقد التزم لوازمه الظاهرة، والباطنة، ومقاماته وأحواله، وله فى كل عقد من عقوده وواجب من واجباته، أحوال ومقامات، لا يكون موفياً لذلك العقد والواجب إلا بها، وكلما وفىّ واجباً أشرف على واجب آخر بعده، وكلما قطع منزلة استقبل أخرى، وقد يعرض له أعلى المقامات والأحوال فى اول بداية سيره ، فينفتح عليه من حال المحبة والرضا والأنس والطمأنينة ما لم يحصل بعد لسالك فى نهايته، ويحتاج هذا السالك فى نهايته إلى أمور من البصيرة، والتوبةو والمحاسبة أعظم من حاجة صاحب البداية إليها، فليس فى ذلك ترتيب كلى لازم للسلوك(٣).

---

(١) سورة ق، آية٢٢، عن أبى حازم عن سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ، قال : «ألا فى الأرض أنية ألا وهى القلوب، فأحبها إلى الله أرقها وأصفاها وأصلبها، فأرقها للإخوان، وأصفاها من الذنوب، وأصلبها فى الدين»فهؤلاء أهل الصلابة فى الدين ، انظر الحكيم الترمذى :منازل العباد، ص ٨٣.

(٢) منازل أولياء الله تعالى لا تحصر كما لا يحصر تفاوت خلقهم وأخلاقهم، وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محصن من جانبك وتصفية وجلاء، ثم استعداد وانتظار. أنظر الغزالى : إحياء علوم الدين، حـ٣،ص٢٠.

(٣) ابن القيم : مدارج السالكين، حـ، ص ١٣٦و ١٥٤، ١٥٥.

ويرى ابن القيم أن مقام التوبة الذى يعد من أول المقامات عند الغالب من الصوفية هو غاية العارفين ونهاية أولياء الله المقربين ، ولا ريب أن حاجتهم إلى المحاسبة فى نهايتهم، فوق حاجتهم إليها فى بدايتهم ويؤيد ابن القيم طريق المتقدمين من أئمة القوم فى كلامهم على المقامات، وبيان حقيقتها والآفات المانعة من حصولها، وأنهم تكلموا على أعمال القلوب، وعلى الأحوال كلاماً منفصلاً جامعاً مبيناً مطلقاً من غير ترتيب ولا حصر للمقامات بعدد معلوم[1].

ويرى شيخ الإسلام الإمام الهروى أن التوبة أول منازل السالكين، لكن ابن القيم يرى أن السالك فى هذه المنزلة يحتاج إلى محاسبة نفسه وتمييز ما له مما عليه ليستصحب ماله، ويؤدى ما عليه، وبالتالى فمنزلة المحاسبة قبل منزلة التوبة فى المرتبة، ولا تتم التوبة إلا بالمحاسبة، فالمحاسبة تكمل منزلة التوبة وتحافظ عليها حتى لا يخرج عنها المريد، فمنزلة التوبة تقوم على الجهد المبذول فى المحاسبة ثم تأتى المنّة والامتنان من الله سبحانه وتعالى بالتوبة، قال تعالى: «ثم تاب عليهم ليتوبوا»[2].

وترتيب هذه المقامات ليس باعتبار أن السالك يقطع المقام ويفارقه وينتقل إلى الثانى كمنازل السير الحسى، فاليقظة مع السالك فى كل مقام لاتفارقه، وكذلك البصيرة والإرادة، والعزم، وكذلك التوبة فكما أنها من أول المقامات فهى أخرها أيضا، بل هى فى كل مقام مستصحبة، ولهذا جعلها الله تعالى آخر مقامات خاصته، فالتوبة هى نهاية كل سالك وكل ولى لله، وهى الغاية التى يجرى إليها العارفون بالله وعبوديته، قال تعالى: «ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً»[3] فجعل سبحانه التوبة غاية كل مؤمن ومؤمنة.[4]

(١) ابن القيم : مدارج السالكين، حـ، ص ١٣٦و ١٥٤، ١٥٥.

(٢) سورة التوبة، آية ١١٨.

(٣) سورة الاحزاب، آية ٧٢، ٧٣.

(٤) ابن القيم : مدارج السالكين، حـ١، ص ١٤٩، ١٥٠.

ويؤكد ابن القيم على معرفة منازل العبودية الواردة فى القرآن والسنة وضرورة معرفة حدودها ومراتبها، إذ معرفة ذلك من تمام معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، فبمعرفة حدودها دراية، والقيام بها رعاية، ليستكمل العبد الايمان، ويكون من أهل«إياك نعبد وإياك نستعين»(١)

ثالثا : منزلة الفِراسةُ :

يرى ابن القيم أن منزلة الفراسةُ من منازل«إياك نعبد وإياك نستعين» والتى يتدرج فيها السالك مترقياً من منزلة إلى منزلة أخرى حتى يحقق ما يتوخى الوصولَ إليه، ومنزلة الفراسة لعبد تطهر قلباً وصفا خلقاً وتنزه صدراً، واقترب من القربة محلا وأنفرَد حظّاً فهو إذا نظر؛ نظر بنور الله، وتحقق فيه قول الرسول الكريمﷺ فيما حكى عن جبريل عليه السلام عن ربه عز وجل أنه قال: فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً وفؤداً، فبي يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يعقل»(٢)، وعن النبىﷺ قال: «اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»(٣)، فمن نظر بنور الله أبصر بالله . يقول محى الدين بن عربى ينظر المتفرس صاحب الفراسة فى الشخص، فيعلم ما يكون منه، أو ما خطر له فى باطنه أو ما فعل(٤). وهذا يظهر للصادق بنور الإيمان الذى أخبر الله عنه فى قوله تعالى: «مثل نوره كمشكاة فيها مصباح»(٥). قال أبىّ بن كعب «مثل نوره فى قلب المؤمن» فهذا نور يضاف إلى الرب، ويقال : هو نور الله كما أضافه الله سبحانه إلى نفسه، والمراد به نور الإيمان الذى جعله الله

---

(١) يخاطب الحكيم الترمذى مريديه بقوله، فإنكم سألتمونى عن وصف منازل العباد من هذا الدين وأن أذكر لكم على كل منزلة منها عن طريق الكتاب المنزل والخبر المأثور ما يكون شاهدا على وصفى، وفى هذا اتفاق بين الحكيم الترمذى وما قاله الإمام ابن القيم من أن منازل العباد تستند على ما جاء فى الكتاب والسّنة ومؤيدة بهما. انظر ابن القيم : مدارج السالكين، حـ١ ، ص ١٥٦ و وانظر الحكيم الترمذى: منازل العباد، ص ٣٥.

(٢) سبق تخريج الحديث ، وانظر الحكيم الترمذى: الفروق ومنع الترادف، لوحة ٢٥.

(٣) سبق تخريج الحديث.

(٤) ابن عربى : الفتوحات المكية، السفر الثالث، ص ٣١٦، ٣١٧.

(٥) سورة النور، أية ٣٥

له خلقاً وتكويناً ، كما قال تعالى «ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور»[1] فهذا النور إذا تمكن من القلب، وأشرق فيه، فاض على الجوارح، فيرى أثره فى الوجه والعين، ويظهر فى القول والعمل، وقد يقوى حتى يشاهده صاحبه عياناً، وذلك لاستيلاء أحكام القلب عليه، وغيبة أحكام النفس، فالعين شديدة الارتباط بالقلب، تظهر ما فيه، فتقوى مادة النور فى القلب، وهو نور الذات المقدسة[2].

رابعاً : الفِرَاسةُ والظن :

الفِراسةُ لا تنبع من ظن، أو شك، أو مصادفة، ومن ثم فرأى من يقرن الفراسةُ بالظن أو المصادفة فقد جانبه الصواب، ويرى الفيلسوف ابن رشد أن علَم الفِراسةُ علم ظنى يقوم على الصدفة[3]، بيد أننَا يجب أن نفرق بين الفراسةُ الإيمانية التى هى خاصة أهل الطريق، والفراسةُ الفلسفية أو الحَكمية التى هى علم ظنى يقوم على الصدفة، وهى ما يختص بها الفلاسفة والأطباء، ويرى أبو عثمان النيسابورى أن الفِراسةُ ظن وافق الصواب، والظن يخطئ ويصيب، فإذا تحقق فى الفِراسةُ ، تحقق فى حكمها، لأنه إذ ذاك يحكم بنور الله تعالى[4]، فللمتفرس فكر ورؤية ، لكن الحكم اليقينى نور قذفه الله تعالى فى قلب المريد طبقاً لمقامه ومرتبته فى المعرفة، فكل قلب يرى بإراءة الحق تعالى إياة ما يراه بنور الله حقيقة غير مشوبة بالشك، ففراسة العارفين تحقيق يوجب حقيقة[5]. ويقول الحكيم الترمذى ؛ الظن أن يحدث المريد نفسه بشئ، ثم لا يرجع إلى سكون ولا قرار، فذلك متردد فى صدره

---

(١) سورة النور ، آية ٤٠ .

(٢) ابن القيم : مدارج السالكين، حـ٣، ص ٢٤٠ .

(٣) ابن رشد : تهافت التهافت، ص ، ص ٥٩٥، سئل الجنيد عنالفراسة فقال: هى مصادفة الإصابة، قيل له، هى للمتفرس فى وقت المصادفة أوعلى الأوقات؟ قال: لا، بل على الأوقات، لأنها موهبة، فهى معه كائنة دائمة.

(٤) السلمى : طبقات الصوفية، ص ١٧٤ .

(٥) أبو بكر عبد الله الرازى: منارات السائرين ومقامات الطائرين، ص ٣٧٤ .

والقلب فى حيرة، لليقين زيادة ونقصان، وضعف وقوى، يزيد بقدر تصفية القلب عن كدورات ومذمومات النفس، فصاحب الظن مازال فى غياهب النفس، يرتبط بالعلائق الجسمانية ولم يصل بعد إلى درجة الإشراق والتجلى مع الله(١).

ويرى ابن القيم أن الظن يخطئ ويصيب وهو يكون مع ظلمة القلب، ولهذا أمر الله تعالى باجتناب كثير منّه ، وأخبر أن بعضه أثم، وقد حذر الرسولﷺ منه وقال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»(٢)، أما الفراسة فقد امتدح الله سبحانه وتعالى أهلها وأثنى عليهم، وقال تعالى: «إن فى ذلك لآيات للمتوسمين»(٣).

خامساً : الفِرَاسة والإلهام:

الإلهام نبأ يقع وحياً مقروناً بسماع، إذ مطلق النبأ الخبر الذى له شأن، فليس كل خبر نبأ، وهو نبأٌ خبر عن غيب عظيم، قال تعالى:«ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها»(٤) وقد جعل الإمام الهروى صاحب المنازل، الإلهام هو مقام المحدثين ، قال : وهو فوق مقام الفراسة، لأن الفراسة ربما وقعت نادرة، واستصعبت على صاحبها وقتاً، أو استعصت عليه، والإلهام لا يكون إلا فى مقام عتيّد(٥).

وقال ابن القيم: التحديث أخص من الإلهام، وإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم، وكل مؤمن فقد ألهمه الله رشده الذى حصل له به الإيمان، فالتحديث إلهام خاص، وهو الوحى إلى غير الأنبياء، كقوله تعالى:

---

(١) الحكيم الترمذى : الفروق ومنع الترادف، لوحة ٢٦.

(٢) الحديث متفق عليه، من حديث أبى هريرة، وأورده صاحب اللؤلؤ والمرجان فى باب التحريم، حـ٣ ، ص ١٩٠ ، ورواه البخارى فى كتاب الأدب ، ورواه مسلم.

(٣) سورة الحجر، آية ٧٥و وانظر ابن القيم : الروح، ص ٢٣٨.

(٤) سورة الشمس ، أية٨

(٥) السيد أبو الفيض : التمكين فى شرح منازل السائرين للأنصارى الهروى، ص ٢٠٨.

وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه»[1]، فهذاوحى إلهام، وأما جعله فوق مقام الفراسة فقد احتج عليه بأن الفِرَاسةُ: ربما وقعت نادرة، والإلهام لا يكون إلا فى مقام عتيد، يعنى فى مقام القرب والحضور، فكل واحد من الفِرَاسة والإلهام، ينقسم إلى عام وخاص، وكل واحد منهما فوق عام الآخر، وعام كل واحد قد يقع كثيراً، وخاصه قد يقع نادراً، ولكن الفرق الصحيح أن الفِرَاسةُ قد تتعلق بنوع كسب وتحصيل، قال تعالى: «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا»[2] فكل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم فهى بطريق الكشف والإلهام، قال تعالى: «ومن يتق الله يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب»[3]، يعلمه علماً من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة[4] وأما الإلهام فموهبة مجردة لاتنال بكسب، أى أن الإلهام من الله إلى القلب، والملهم هو الذى انكشف له فى باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسوسات الخارجية[5]، وأما الفراسة، فتقع نادرة وقد تستعصى على صاحبها[6].

سادساً : الفِراسةُ والتنبؤ بالغيب:

عمد بعض المنجمين والعرافين ممن منحهم الله بعض مبادئ الفراسةُ العقلية، والتى يستدلون بها من الظاهر على الباطن، بالتلاعب بعقول العامة والبسطاء من الناس بغية الكسب المادى، وقد يقع فى حبائلهم بعض

(١) سورة القصص، أية ٧، قال الحكيم الترمذى المحدث له الحديث والفراسة والإلهام والصديقية، والنبى له ذلك كله والتنبؤ، والرسول له ذلك كله والرسالة ، ومن دونهم الأولياء لهم الفراسة والإلهام والصديقية. انظر الحكيم الترمذى: ختم الأولياء ، تحقيق عثمان يحيى، بحوث معهد الآداب الشرقية، بيروت، ١٩٦٥، ص ٣٥٢ ، ٣٥٨.

(٢) سورة العنكبوت، آية ٦٩.

(٣) سورة الطلاق، آية٢.

(٤) الغزالى : إحياء علوم الدين، حـ٣، ص ٢٤.

(٥) المرجع نفسه، حـ ٣ ، ص ٢٤، ٢٥.

(٦) ابن القيم : تفسير سورة الفاتحة، تحقيق محمد حامد الفقى ، مكتب السنة المحمدية، القاهرة، ص ٤٠ ، ٤١. وانظر ابن القيم : مدارج السالكين، جـ ١، ص ٥٣، ٥٤.

المتفقين ويدورون فى فلكهم من وهم إلى وهم ومن معتقد إلى معتقد، آملين فى الوصول إلى مفقود أو غائب أو التنبؤ بالمستقبل، وقد حذر الرسولﷺ من الاعتقاد بالمنجمين أو العرافين أو الكهنة وذهب فى وصف من صدقهم بالكافر، قال الرسول ﷺ : «من أتى عرافاً أو كاهناً وصدقه، فقد كفر بما أنزل على محمد» ، فقد عد الرسولﷺ من صدق العراف أو الكاهن أو المنجم وأعتقد أفكارهم، بالذى كفر بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فالرسول ﷺ كان يكره العرافة والكهانة لأنها لا تصدر عن علم يقينى وتوقع معتقديها فى الظن والشك، فالتنبؤ بالغيب أثر من آثار الفراسة العقلية، ولا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى .

سابعاً : أسباب الفِرَاسةُ :

يفرق ابن القيم بين الفِراسةُ الإيمانية والفِرَاسةُ الفلسفية، ويرى أن للفِرَاسةُ سببين:

أحدهما : جودة ذهن المتفرس، وصفاء قلبه، وحسن فطنته.

الثانى : ظهور العلامات والأدلة على المتفرّس فيه.

فإذا اجتمع السببان لم تخطئ للعبد فِرَاسةُ، وإذا انتفيا لم تكد تصح له فِرَاسةُ وإذا قوى أحدهما وضعف الآخر، كانت فراسته متوسطة(١).

وهذه الفراسةُ هى ما عبرنا عنه بالفراسة الفسلفية أو ما سماها ابن عربى بالفراسة الحكَمية وهى بخلاف الفراسة الإيمانية الإلهية التى هى نور يقذفه الله فى قلب المؤمن يدرك به الأشياء فى أى وقت يشاء بلا كيف، هذه الفِراسة الإيمانية منّة ومنحة من الحق تبارك وتعالى لمن أرتضى وخشى الرَحمن، وهى هبة لمن يستحقها بالإيمان، واتباع الرسول بالإخلاص والاستقامةوالعمل بما جاء به النبى لأن النبى ﷺ قال: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ، وقال: «المؤمن ينظر بنور الله»(٢) ، وفى القرآن الكريم،

(١) ابن القيم :مدارج السالكين ، حـ ٢، ص ٥٠٩، ٥١٠.

(٢) سبق تخريج الحديث.

قال تعالى: «قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك»[1]، فعلم ما غاب عن غيره من إمكان بيان ما وعد به، وأراد أنه قدر عليه ولم يكن نبياً ولا رسولاً[2]. فهذه فراسة تجنى من غرس الإيمان كما عبر عنها شيخ الإسلام الهروى، فصاحب الفراسة مؤيد بنور الله تعالى، ولهذا تتباين الفِرَاسةُ إلى أنواع عدة .

ثامناً : أنواع الفِرَاسةُ :

النوع الأول : فِرَاسةُ إيمانية:

فراسةُ إيمانية وهى ماننحدث عنه فى هذه المنزلة، وهى نور يقذفه الله فى قَلب عبده المؤمن يفرق به بين الحق والباطل، وبين الصواب والخطأ، وحقيقتها: أنها خاطر يهجم على القلب ينفى ما يضاده، يثب على القلب كوثوب الأسد على الفريسة.

ويقول ابن القيم هذه الفراسة على حسب قوة الإيمان ، فمن كان أقوى إيماناً فهو أحدُّ فراسةً، فهذا الارتباط الشرطى بين قوة الإيمان وحدّة الفِراسة، يقره أغلب رجال أهل الحق، مع تأكيدهم على أن نور الفراسة ينبع من نور الله.

وسئل بعض أهل الطريق عن هذه الفِراسةُ؟

فقال : أرواح تتقلب فى الملكوت، فتشرف على معانى الغيوب، فتنطق عن أسرار الخلق، نطق مشاهدة لانطق ظنٍ وحسبان[3]. وقال أبو حفص النيسابورى؛ ليس لأحد أن يدعى الفِراسة، ولكن يتقى الفراسة من الغير، لأن النبي ﷺ قال:«اتقوا فراسة المؤمن» ولم يقل: تفرسوا ، فلا يصح دعوى الفراسة لمن هو فى محل اتقاء الفِراسة، وفِراسةُ الصحابة رضى الله عنهم أصدق فِراسة[4].

(١) سورة النمل، آية ٤٠.

(٢) الغزالى : كتاب الإملاء فى اشكالات الإحياء، ملحق بإحياء علوم الدين، حـ٥ ،ص٣٤.

(٣) ابن القيم : مدارج السالكين، حـ٢، ص ٥٠٤، ٥٠٥.

(٤) المرجع نفسه، حـ٢، ص ٥٠٦و وانظر القشيرى : الرسالة القشيرية، حـ٢، ص ٤٨٥

وأصل هذا النوع من الفِرَاسةُ، من الحياة والنور اللذين يهبهما الله تعالى، لمن يشاء من عباده، فيحيا القلب بذلك ويستنير فلا تكاد فراسته تخطئ، قال الله تعالى:«أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها»[١]، كان ميتا بالكفر والجهل، فأحياه الله بالإيمان والعلم، وجعل له القرآن والإيمان نوراً يستضئ به فى الناس[٢].

النوع الثانى : فراسة الرياضة والمجاهدة:

فِراسةُ الرياضة والجوع، والسهر والتخلى، فإن النفس إذا تجردت عن العوائق صار لها من الفراسة والكشف بحسب تجردها، وهذه فراسة مشتركة بين المؤمن والكافر، ولاَ تدل على إيمان ولا على ولاية، وكثير من الجهال يغتر بها، وهى فراسة لا تكشف عن حق نافع ولا عن طريق مستقيم، بل كشفها جزئى من جنس فراسة الولاة وأصحاب عبارة الرؤيا والأطباء ونحوهم، وللأطباء فراسة معروفة من حذقهم فى صناعتهم ، وقريب من نصف الطب فراسة صادقة يقترن بها تجربة[٣].

النوع الثالث : فراسة الخَلْقْة والشكل:

الفراسة الخَلْقية ، وهى الاستدلال بالخَلْق على الخُلق لما بينهما من الارتباط الذى اقتضته حكمة الله، كالاستدلال بصغر الرأس الخارج عن العادة على صغر العقل، وبكبره وبسعة الصدر على سعة خلق صاحبه واحتماله، وعلامات أخرى يعيها الأطباء ويعتمدون عليها فى استدلالهم بالظاهر على الباطن ، ومعظم تعلق الفِراسة بالعين فإنها مرآة القلب وعنوان ما فيه، ثم باللسان فإنه رسوله وترجمانه، وأصل هذه الفراسة ، أن اعتدال الخلقة والصورة، هو اعتدال المزاج والروح، وعن اعتدالها يكون اعتدال

(١) سورة الانعام، آية ١٢٢.

(٢) ابن القيم : مدارج السالكين، حـ٢ ، ص ٥٠٦، ٥٠٧.

(٣) ابن القيم : مدارج السالكين ، حـ ٢ ، ص ٥٠٧.

الأخلاق والأفعال، وبحسب انحراف الخلقة والصورة عن الاعتدال ، يقع الانحراف فى الأخلاق والأعمال.

وصاحب الصورة والخلقة المعتدلة يكتسب بالمقارنة والمعاشرة أخلاق من يقارنه ويعاشره، ويكتسب طباعه ويتعودها، ويتعسر عليه الانتقال عنها[1].

وكذلك صاحب الخلقة والصورة المنحرفة عن الاعتدال يكتسب بصحبة الكاملين ومخالطتهم أخلاقاً وأفعالاً شريفة ، تصير له كالطبيعة ، فإن العوائد والمزاولات تغطى الملكات والأخلاق.

فهذه العلامات والأسباب يجب ألا يهملها المتفرس حين يصدر أحكامه حتى لا يتجنبها الصواب.

وفِرَاسةُ المتفرس تتعلق بثلاثة أشياء : بعينه ، وأذنه ، وقلبه. فعينه للسيما والعلامات، وأذنه؛ للكلام وتصريحه وتعريضه، ومنطوقه ومفهومه، وفحواه وإشارته، ولحنه وإيمانه ونحو ذلك، وقلبه؛ للعبور والاستدلال من المنظور والمسموع إلى باطنه وخفيه، فيعبر إلى ما وراء ظاهره ، كعبور النقاد من ظاهر النقش إلى باطن النقد والاطلاع عليه، وكذلك عبور المتفرس من ظاهر الهيئة إلى باطن الروح والقلب[2].

تاسعاً : درجات الفِرَاسةُ :

اتفق الإمام ابن القيم مع ما أورده شيخ الإسلام الأنصارى الهروى فى تقسيم الفراسة إلى ثلاث درجات؛ وقام ابن القيم بشرح ذلك مع ضرب الأمثلة التوضيحية لبيان ما بها من معانى.

الدرجة الأولى : فِرَاسةُ طارئة نادرة :

فِرَاسةُ طارئة نادرة تسقط على لسان وحشى فى العمر مرة، لحاجة مريد صادق إليها، لا يتوقف على مخرجها ولايؤبه لصاحبها. وهذا شئ لا

(٢) ابن القيم : مدارج السالكين ، حـ ٢ ، ص ٥٠٧.

(٣) ابن القيم : مدارج السالكين، حـ٢ ، ص ٥٠٩.

يخلص من الكهانة وما ضاهاها لأنها لم تشر عن عين ، ولم تصدر عن علم ، ولم تسبق بوجود[١] . يريد بذلك ما يجرى على ألسنة السذج والغافلين الذين ليست لهم يقظة أرباب القلوب، فتكون لهم فِرَاسةٌ لكنها حادثة نادرة طارئة تصدر على لسان وحشى لم يتهذب، وهذه الفِرَاسةُ مرة واحدة إذا صحت أو رمية من غير رام، وقد يحدث ذلك عن طريق الفأل أو عن طريق البشرى من الله لحاجة مريد صادق إليها، فيجريها الله على لسان غيره فينبه هو إليها، وقد لا يعلم الشخص الذى خرجت منه ، فقد يخطر خاطر لشخص يتلفظ به فيسمعه غيره فيتفاءل أو يتطير بسببه، وهذا لا يخلو من أن يكون ضربا من ضروب الكهانة؛ والكهانة من التكهن والتحدث على الفأل والبخت وغير ذلك مما كان معلوماً فى زمن الجاهلية، وكان الرسولﷺ يحب الفأل الحسن، ويكره الطيرة والتشاؤم، وما ضاهاها؛ أى ما شابهها من جنس الخط بالرمل ، وضرب الحصى، والودع، وزجر الطير، ولكونها من الكهانة فهى لم تصدر عن عين الحقيقة أو عن علم يقينى، فصاحبها دائما فى شك وليس على بصيرة من أمره، ولم يسبق له وجود شئ يقاس عليه، فهو يفتقد المثال والقدوة، لذا يجب على المريد دفع ذلك بالإيمان بالتوكل على الله والثقة به[٢] .

الدرجة الثانية: فِراسةُ الإيمان:

فراسة تجنى من غرس الإيمان ، وتطلع من صحة الحال، وتلمع من نور الكشف، فهذا النوع من الفِرَاسةُ مختص بأهل الإيمان واليقين أصحاب الأحوال والمقامات، فهى فراسة من غرس الإيمان، فشبه الإيمان بالغرس الذى يزداد وينمو ويؤتى أكله كل حين بإذن ربه، وأصله ثابت فى الأرض وفروعه فى السماء، فمن غرس الإيمان فى أرض قلبه الطيبة، وسقاه بماء الإخلاص والصدق، كان من ثمره هذه الفراسة، ويقول ابن القيم، وكلما ازداد الإيمان

(١) السيد محمود ابو الفيض : التمكين فى شرح منازل السائرين للهروى ، ص ٢٠٣، ٢٠٤.

(٢) ابن القيم : مدارج السالكين. جـ ٢ ، ص ٥١٢ ،٥١٣.

وترقى أدى ذلك إلى ترقى المريد فى الأحوال والمقامات، ومتى صح حال المريد وصدق ، صدقت فراسته، والفراسة تقوى بنور الكشف وهذا النور يقذفه الله فى قلب المريد المؤمن، فيقوى إيمانه ويسطع ، كقوله تعالى: «نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء»(١)، وهذا من شأن الأولياء الكمل المتصلين بنور الحق والسائرين على قدم الأخلاص والصدق، فعن النبىﷺ قال : «لا يزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»(٢)، فعلى الصدق مدار جميع المقامات فى السير إلى الله، ولا يمكن الوصول إلى الحضرة الإلهية إلا بقدم الصدق، وقال تعالى: «وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم(٣)» ، لهم البشرى فى الحياة الدنيا والآخرة، تلك البشرى هى الرؤيا الصاحلة يراها العبد أو ترى له، فتأتى البشرى على قلبه فى اليقظة، فإن القلب خزانة الله، وروحه تسرى إلى الله تعالى فى منامه، وقلبه يسير إليه فوق العرش فى الحجب، فيلاحظ ويناجى ويبشر وفيه توحيده، وإلهامه وفراسته، وسكينته، وهو أثبت وأوكد(٤).

الدرجة الثالثة: فِرَاسةُ سرية :

فِرَاسةُ سرية لم تجتلها روَّية ، على لسان مصطنع تصريحاً أو رمزاً ، وهذه فِرَاسةُ سرية بين العبد وربه، وهذا السر من شأن أولياء الله يمنحه الله لهم ويحجبه عن غير أهله، وهذه الفراسة لا تأتى لصاحبها بعد فكر وترو بل هى تهجم على القلب بلا كيف ولا سبب ولا برهان، فهى إلهام إلهى عن أمور مغيبة يخبر بها المتفرس تارة بالتصريح وتارة بالتلويح وذلك إما ستراً لحاله، وأما صيانة لما أخبر به حتى لا تقع فى غير أهلها(٥).

---

(١) سورة النور، آية ٣٥، وانظر ابن القيم: مدارج السالكين، جـ٢، ص ٥١٥.

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب، ومسلم فى باب قوله تعالى:« يأيهاالذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين»

(٣) سورة يونس، آية ٢ ،

(٤) الحكيم الترمذى: ختم الأولياء ، تحقيق عثمان يحى، ص ٣٧٢.

(٥) ابن القيم : مدراج السالكين، حـ ٢ ، ص ٥١٥، ٥١٦.

النـتائج :

١ – مقام الفِرَاسةُ من مقامات الإيمان ، والفراسةُ هي خاطر على القلب، وهي على حسب قوة الإيمان، فكل من كان أقوى إيماناً كان أحدُّ فِراسة.

٢ – مدح الله سبحانه وتعالى الفِرَاسةُ والمتوسمين بها، وجاءت بعض الأيات القرآنية تعظم أهل الفِرَاسةُ، وتبين أن لهم سلطان الحق والإلهام.

٣ – يشهد لصحة الفِرَاسةُ قول الرسول ﷺ : «اتقوا فِرَاسةُ المؤمن فأنه ينظر بنور الله»، وإمام المتفرسين وشيخ المتوسمين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، لم يكن تخطئ له فراسة.

٤ – العلم الذى يحصل بغير طريق الاكتساب يسمى فِرَاسةُ إيمانية صوفية ، والذى يحصل بطريق الاكتساب يسمى بالفراسة الفلسفية، فالفراسةَ الصوفية هبة تفضلية من الله، أما الفِراسة الفلسفية فهى استدلاَل من الظاهر على الباطن.

٥ – الفراسةُ عند ابن القيم نور يقذفه الله فى القلب يفرق به بين الحق والباطل.

٦ – يتفق ابن القيم مع شيخ الإسلام الأنصارى الهروى فى أن البصيرة تنبت فى أرض القلب الفِراسة الصادقة.

٧ – الحال والمقام مرحلة مجاهدة للعبد، ثمارها النزول فى مقام يستحقه بمجاهدته وإيمانه.

٨ – يرى ابن القيم أن الفراسةُ لا تنبع من ظن ، لأن الظن يخطىء ويصيب وهو يكون مع ظلمةَ القلب.

٩ – يرى ابن القيم أن للفِرَاسةُ سببين:

أ – جودة ذهن المتفرس، وصفاء قلبه ، وحسن فطنته.

ب – ظهور العلامات والأدلة على المتفرس.

١٠ – تتباين الفراسة إلى ثلاثة أنواع:

أ – فِرَاسةُ إيمانية؛ نور يقذفه الله فى القلب، يهجم على القلب وهى مرتبطة بقوة الإيمان.

ب – فِرَاسةُ الرياضة والتجرد عن الماديات وهى للكافة ولا ترتبط بالإيمان.

جـ– الفِرَاسةُ الاستدلالية وهى الاستدلال بالظاهر على الباطن، وبالخَلْق علَى الخُلق.

١١ – يقسم ابن القيم الفِرَاسةُ إلى ثلاث درجات :

أ – فِرَاسةُ طارئة نادرة تسقط فى العمر مرة واحدة.

ب – فِرَاسةُ تجنى من غرس الإيمان، وصحة الحال، وتلمع من نور الكشف، وهذا النوع من الفِرَاسةُ مختص بأهل الإيمان واليقين، أهل الحق.

جـ – فِرَاسةُ سرية بين العبد وربه، وهذا السر من شأن أولياء الله، هذه الفراسة تهجم على القلب بلا كيف ولاسبب ولا برهان.

ثبت المراجع

- القرآن الكريم.

- كتب الأحاديث النبوية الشريفة.

(١) ابن أبى أصيبعة موفق الدين أبى العباس أحمد) : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، دار الحياة، بيروت.

(٢) ابن تيمية (أحمد عبد الحليم) : الرسائل والمسائل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣.

(٣) ابن الجوزى (جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن) : صفة الصفوة ، تحقيق محمود الفاخورى، دار الوعى العربى، ١٣٩٣هـ.

(٤) ابن حجر (أحمد بن على بن محمد العسقلانى) : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت.

(٥) ابن رشد (ابو الوليد محمد) : تهافت التهافت ، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، ط٢ ،١٩٧١.

(٦) ابن عربى (محى الدين أبو عبد الله) : الفتوحات المكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، حـ٢، ١٩٨٥.

(٧) ابن العماد (عبد الحى بن أحمد بن محمد) : شذرات الذهب، المكتب التجارى للطباعة، بيروت.

(٨) ابن القيم (شمس الدين محمد بن أبى بكر) : مدارج السالكين، دار الحديث، القاهرة، ١٩٨٣.

(٩) » » » . : حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح ، مكتب المتنبى، القاهرة .

(١٠) » » » : الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، مكتبة المتنبى، (القاهرة).

(١١) » » » : إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، مؤسسة جمال، بيروت، ١٩٦١.

(١٢) ابن القيم (شمس الدين محمد بن أبى بكر): الروح، مكتبة المتنبى، القاهرة ، ١٩٧٧.

(١٣) « « « : الطرق الحكمية، دار المدنى للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٥

(١٤) « « « : تفسير سورة الفاتحة، تحقيق محمد حامد الفقى، مكتبة السّنة المحمدية، القاهرة.

(١٥) ابن كثير (أبو الفدا اسماعيل القرشى) : تفسير القرآن ، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٤.

(١٦) الألوسى (السيد نعمان خير الدين البغدادى): جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين، مطبعة المدنى، القاهرة، ١٩٨٠.

(١٧) الانطاكى (داود بن عمر) : تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب، دار الفكر العربى، القاهرة

(١٨) الترمذى (محمد بن على بن الحسن بن بشر الحكيم) : نوادر الأصول فى معرفة أخبار الرسول، دار صادر، بيروت .

(١٩) الترمذى (محمد بن على بن الحسن بن بشر الحكيم) :الفروق ومنع الترادف، مخطوط، دار الكتب، القاهرة

(٢٠) الترمذى (محمد بن على بن الحسن بن بشر الحكيم) : معرفة الأسرار تحقيق ابراهيم الجيوشى، دار النهضة، القاهرة ، ١٩٧٧

(٢١) الترمذى (محمد بن على بن الحسن بن بشر الحكيم) : منازل العباد من العبادة، تحقيق ابراهيم الجبوش، دار النهضه، القاهرة، ١٩٧٧.

(٢٢) التفتازانى (أبو الوفا الغنيمى، دكتور) : ابن عطاء الله وتصوفه، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ط٢ ، ١٩٦٩.

(٢٣) الجرجانى (الشريف على بن محمد) : التعريفات، دار الكتاب، بيروت، ١٩٨٣.

(٢٤)جورج سارتون : تاريخ العلم ، دار المعارف، القاهرة.

(٢٥) الذهبى (شمس الدين أبى عبد الله بن أحمد) : تذكرة الحفاظ، دار الباز للنشر، مكة.

(٢٦) الرازى (أبو بكر عبد الله بن شاهاور) : منارات السائرين ومقامات الطائرين ، تحقيق سعيد عبد الفتاح، دار سعاد الصباح .

(٢٧)الرازى (فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الخطيب) : مناقب الإمام الشافعى. تحقيق أحمد السقا، مكتبة الكليات الأزهرية.

(٢٨) الزمخشرى (أبو القاسم محمود بن عمر) : أساس البلاغة ، دار التنوير، العربى، بيروت، ط ٢، ١٩٨٤

(٢٩) السبكى (تاج الدين تقى الدين): طبقات الشافعية، دار المعارف، بيروت، ط٥.

(٣٠) السلمى (محمد بن الحسين محمد بن موسى) : طبقات الصوفية ، تحقيق نور الدين شريبة ، مكتبة الخانجى، القاهرة ، ط ٣، ١٩٨٦.

(٣١) السهروردى (شهاب الدين ابى حفص عمر): عوارف المعارف، بهامش الإحياء، المكتبة التجارية بالاسكندرية.

(٣٢) السيد محمود أبو الفيض : التمكين فى شرح منازل السائرين للهروى، دار النهضة، القاهرة، ١٩٦٩.

(٣٣) الطوسى (عبد الله بن على السراج) اللمع، دار الكتب الحديثه، ١٩٦٠.

(٣٤) عبد القادر محمود (دكتور) : الفلسفة الصوفية فى الإسلام، دار الفكر العربى، ١٩٦٦.

(٣٥) الغزالى (محمد بن أحمد أبو حامد): سر العالمين وكشف ما فى الدارين، مطبعة الجندى، القاهرة (٣٦)

: إحياء علوم الدين، المكتبة التجارية بالاسكندرية.

(٣٧) الغزالى (محمد بن أحمد أبو حامد): روضة الطالبين وعمدة السالكين، دار النهضة الحديثة، بيروت.

(٣٨) » » » : تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، ط ٦، ١٩٨٠.

(٣٩) الفارابى (أبو نصر محمد بن طرخان) : إحصاء العلوم، تحقيق عثمان أمين ، مكتبة الأنجلو، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٦٨

(٤٠) فليمون الحكيم : الفراسة، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة.

(٤١) القاشانى (كمال الدين عبد الرازق) : إصطلاحات الصوفية، تحقيق كمال جعفر، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨١.

(٤٢) القشيرى (عبد الكريم بن هوازن) : الرسالة القشيرية ، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٧٢.

(٤٣)الكلاباذى (أبو بكر محمد) : التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق محمد امين النواوى، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٨١ .

(٤٤) المعجم الفلسفى : الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٩٧٩.

(٤٥) المعجم الوسيط : المجمع اللغوى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣.

(٤٦) المكى (محمد بن على بن عطية) : قوت القلوب ، دار صادر ، بيروت.

(٤٧) النشار (على سامى، دكتور) : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام، دار المعارف ، ط ٧، جـ١ ، ١٩٧٧.

(٤٨) الهجويرى (على بن عثمان الجلالى) : كشف المحجوب، تحقيق ابراهيم شتا، دار التراث العربى، القاهرة، ١٩٧٦.

(٤٩) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية، مكتبة النهضة، ط ٥ ، ١٩٦٦.

(٥٠)يوسف مراد (دكتور) : الفراسة عند العرب ، والفراسة لفخر الدين الرازى، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٢.